T.C.

MARMARA ÜNİVERSİTESİ

SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM DALI

ARAP DİLİ VE BELAGATI BİLİM DALI

SURİYE GÖÇ EDEBİYATINDA AĞIT

(YÜKSEK LİSANS TEZİ)

AHMED ALİOĞLU

İSTANBUL-2023

T.C.

MARMARA ÜNİVERSİTESİ

SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM DALI

ARAP DİLİ VE BELAGATI BİLİM DALI

SURİYE GÖÇ EDEBİYATINDA AĞIT

(YÜKSEK LİSANS TEZİ)

AHMED ALİOĞLU

DANIŞMAN: PROF. DR. HALİL İBRAHİM KAÇAR

İSTANBUL-2023

كلمة شكر

الحمد لله وحدة والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، الحمد الله سبحانه وتعالى الذي وفقني وهداني لطلب العلم وتحصيله، وأتوجه بالشكر إلى تركيا التي هيأت لنا إمكانية متابعة تعليمنا بعد الحرب والدمار والأذى النفسي والجسدي الذي تعرضنا له في بلدنا، وأشكر أيضاً جامعة مرمرة بكل كادرها التعليمي والإداري، وأخص بالشكر الدكتور خليل إبراهيم كاشار الذي لم يبخل علي بالنصح والمساعدة والتيسير ليتم هذا البحث على أفضل مايمكن.

وأوجه الشكر لوالدي اللذين لولاهما ولولا دعاؤهما لما وصلت إلى هنا، فلكما مني خالص الشكر وأسأل الله أن يكافئكما، وأقول لكما رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً، وأشكر زوجتي الصابرة التي عانت في سبيل وصولي إلى هذه المرحلة وهيأت لي أسباب الراحة لأتمكن من البحث والكتابة.

وأشكر جميع أفراد عائلتي وأقاربي وأصدقائي وكل من ساندني، وأخص بالذكر جميع أساتذتي الذين قابلتهم وتعلمت منهم، وأسألك الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، والحمد لله رب العالمين.

ملخص

الكاتب: أحمد علي الخضر (علي أوغلو)

القسم: معهد الدراسات الاجتماعية

الفرع: اللغة العربية والبلاغة

المشرف: الأستاذ الدكتور خليل إبراهيم كاشار

نوع الدراسة وتاريخها: ماجستير 2022

يعتبر أدب الهجرة ظاهرة شعرية حديثة في الشعر العربي، حيث بدأ يتشكل بعد هجرة العديد من الشعراء من سوريا ولبنان إلى الأمريكتين، وهذه الهجرة الناجمة عن سوء الأحوال الاجتماعية، هي بداية ولادة نمط مختلف، ونوع من الشعر العربي لم يعرفه الشعراء من قبل، وقد قام هؤلاء الشعراء بإنشاء جمعيات تربطهم ببعضهم في بلاد الهجرة، فكانت الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية والعصبة الأندلسية في أمريكا الجنوبية ثمرة هذا التوحد، ومن أهم شعراء تلك الفترة جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضي وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة، وإلياس فرحات، وشفيق معلوف، وغيرهم.

ولقد تركوا لنا أعمالاً أدبية رائعة يعبرون فيها عن اشتياقهم لوطنهم ونمط الحياة في بلدانهم الجديدة، من خلال نقل مشاعرهم وعواطفهم في قصائدهم وأعمالهم الأدبية ليتمكن القارئ من الاندماج معهم والإحساس بهم من خلالها، وفي العقد الثاني من هذا القرن بعد عام2011، حدثت ظاهرة شعرية جديدة وتشكلت معالمها خلال الحرب في سوريا، حيث هاجر العديد من الكتاب والشعراء السوريين إلى العديد من الدول المجاورة مع عائلاتهم، وبدأ أدب المهجر يتطور في بلدان اللجوء والهجرة، فانتعشت حركة الكتابة والترجمة والنشر، وكان لتركيا الحصة الأكبر من هذه النتاج الأدبي، فقد تم افتتاح العديد من دور النشر الجديدة في تركيا للمساهمة في نشر أدب الهجرة السوري في تركيا ومنها إلى العالم.

الهدف من هذا البحث هو دراسة أمثلة لقصائد عن الرثاء في مناطق مختلفة من بلدان اللجوء وتحليل هذه الظاهرة (أدب الهجرة) من حيث النشوء، والتطور، والبيئة الاجتماعية، والبعد التاريخي والإطار السياسي، ضمن أدبيات الهجرة بشكل عام، وحول موضوع الرثاء على وجه الخصوص.

وسيتم تقديم الأطروحة بشكل خاص من خلال التعريف بأدب المهجر وتاريخ نشأته وتطوره، ثم الانتقال إلى موضوعات الرثاء التي تشمل الأب، والأم، والأب، والأطفال، والأخ، والصديق، والرموز، والوطن. سيتم تناول سبع قصائد رثاء في البحث من وجهة نظر فكرية وفنية.

كلمات مفتاحية: هجرة، لجوء، أدب، رثاء، سوريا

Özet

YAZAR: AHMED ALİOĞLU

ANABİLİM DALI: Temel İslam Bilimleri

BİLİM DALI: Arap Dili ve Belagatı

TEZ DANIŞMANI: Prof.Dr. HALİL İBRAHİM KAÇAR

TEZ TÜRÜ VE TARİHİ: Yüksek lisans – 2023

Göç edebiyatı, Suriye ve Lübnan'dan Amerika'ya birçok şairin göçünden sonra oluşmaya başlamış ve Arap şiirinde modern bir şiir fenomeni olarak kabul edilmiştir. Kötü sosyal koşulların neden olduğu bu göç, şairlerin daha önce bilmedikleri yeni bir Arap şiiri türünün yayılmasının başlangıcını oluşturur. Bu akımın öncüleri Kuzey Amerika'da er_Rabıta el_Kalamiyye (kalem Birliği) ve Güney Amerika'da el_Usbe el_Endelusiyye'yi (Endülüs Grubu) kurmuşlardır.

O dönemin en önemli şairleri arasında Cübran Halil Cübran, Îliyyâ Ebû Mâdî, Mihâil Nuayme, Nesîb Arîda, İlyâs Ferhât, Şefîk Ma'lûf ve diğerleri sayılabilir. Bize duygularını aktararak, yeni memleketlerindeki hayat tarzını, ana vatanlarına özlemlerini dile getirdikleri harika edebi eserler bıraktılar.

Bu yüzyılın ilk çeyreğinde(2011'den sonra) , yeni bir şiir akımı oluştu ve özellikleri şekillendi. Suriye'deki savaş sırasında birçok Suriyeli yazar ve şairin aileleriyle birlikte birçok komşu ülkeye göç etmesiyle iltica ve göç edilen ülkelerde göç edebiyatı gelişmeye başlamış, buna parallel olarak da telif ve yayıncılık hareketi ortaya çıkmıştır. Bu edebi ürünlenden en büyük pay Türkiye'ye düşmüştür. Suriye göç literatürünün dünyaya yayılmasına katkıda bulunmak için Türkiye'de birçok yeni yayınevi açılmıştır.

Bu araştırmanın amacı gurbet memleketlerde ağıt konusunda kaleme alınan şiir örneklerini derlemek ve bu olguyu (göç literatürü) başlangıç, gelişme, sosyal çevre, tarihsel boyut ve siyasi çerçeve açısından, genel anlamda göç literatürü içerisinde ve özel anlamda ağıt konusu etrafında tahlil etmektir. Özellikle şairlerin vatan özlemlerini ağıt şiirleriyle ölümsüzleştirdikleri göç edebiyatını, ortaya çıkış tarihi ve gelişimini tanıtarak teze giriş yapılacak, ardından anne, baba, eş, çocuk ve şehir ağıtlarını da içeren ağıtın amaclarından bahsedilecektir. Bu türde kaleme alınmış yedi kaside edebi açıdan incelenecektir.

anahtar kelimeler: Göç, iltica, edebiyat, ağıt, Suriye

Abstract

AUTHOR: AHMED ALİOĞLU

DEPARTMENT: Basic Islamic Sciences

SCIENCE: Arabic Language and Rhetoric

THESIS ADVISOR: Prof.Dr. HALİL İBRAHİM KAÇAR

THESIS TYPE AND DATE: MSc – 2023

Emigration literature began to form after the emigration of many poets from Syria and Lebanon to both South and North America and has been accepted as a modern poetic phenomenon in Arabic poetry. This emigration, caused by bad social conditions, is the beginning of inventing a new type of Arabic poetry that the poets did not know before. the pioneers of this movement established associations that linked them to each other in the countries of emigration, where er_Rabıta al_Kalamiye (Pen Union) in North America and el_Usbe el_Endelusiyye (Andalusian Group) in South America were the fruit of this union.

Among the most important poets of that period Gubran Khalil Gubran, Eilya Abu Madi, Mikail Naima, Nesib Arida, Elyas Farhat, Shafik Ma'louf, and others , Who left us wonderful literary works in which they expressed their longing for their homeland and the way of life in their new countries, by conveying their feelings and emotions in their poems and literary works so that the reader can get emotionally involved and share their feelings through these literary works.

In the second decade of this century(after 2011), a new poetic phenomenon occurred and its features were formed during the war in Syria, where many Syrian writers and poets emigrated to many neighboring countries with their families, and the emigration literature began to develop in countries of asylum and immigration, so the movement of writing, translation and publishing flourished, and Turkey had the largest share of this literary production, where many new publishing houses were opened to contribute to the dissemination of the Syrian emigration literature in Turkey and from there to the whole world.

The aim of this research is to study examples of elegiac poetry in different regions of countries of asylum and to analyze this phenomenon (immigration literature) in terms of its origin, development, social environment, historical dimension and political framework, within migration literature in general, and on the subject of elegiac poetry in particular.

The thesis will be presented in particular by defining the emigration literature and the history of its origin and development, then moving on to topics of elegiac poetry that include father, mother, father, children, brother, friend, symbols, and homeland. Seven poems of elegiac poetry will be discussed in this research from an intellectual and artistic point of view.

Keywords: migration, asylum, literature, elegiac poetry, Syria

فهرس المحتويات

مقدمة:

الهجرة والاغتراب من أولى الظواهر الإنسانية التي ساهمت في تطور البشرية، ونقل المعرفة؛ فقد كان الإنسان في بداياته ينتقل من مكان إلى آخر بحثاً عن موارد الحياة المتنوعة، وتختلف أسباب الهجرة فهناك العوامل السياسية كالحروب والانقلابات، وعوامل اقتصادية كالفقر والبطالة، وعوامل اجتماعية كحال الأقليات، وعوامل نفسية وعلمية وغيرها من الأسباب التي تدفع الأفراد والجماعات لترك بلادهم والهجرة إلى بلاد أخرى.

وقد تناولت الكثير من الدراسات هذه الظاهرة في الأدب العربي بعد أن تحولت إلى موضوع خاص مستقل عندما استقر الرعيل الأول من أدباء المهجر في الأمريكيتين، وابتدعوا نمطاً جديد من الشعر العربي تميز بخصائص عديدة كالنزعة الإنسانية، والتأمل، والحنين إلى الوطن، ومحاورة الطبيعة؛ فاستطاع رواد هذا الموضوع الجديد تأسيس جمعيات ومؤسسات وحدتهم وضمنت استمرارهم كان أهمها الرابطة القلمية في أمريكا الشمالية والعصبة الأندلسية في أمريكا الجنوبية.

لقد استطاع هؤلاء الأدباء نقل نتاجهم الأدبي عبر صحف ومجلات كانت تطبع بشكل دوري كمجلة الفنون التي كرست جهودها لتطوير الأدب العربي الحديث وجريدة السائح التي أخذت دورها في تجديد الأدب العربي بعد أن توقفت مجلة الفنون، بالإضافة إلى ذلك فقد تأسست أيضًا جريدة المهاجر ومجلة السفير اللتان تبنتا هذا الأدب الواعد الجديد.

كانت هذه الصحف والمجلات بالنسبة لهؤلاء الأدباء والشعراء ـبالإضافة إلى دواوينهم وكتبهمـ منبرهم الذي استطاعوا من خلاله نشر أدبهم بكل أشكاله من شعر وقصص وروايات وغيرها من الآداب إلى العالَمَيْن العربي والغربي، وحملوا إلينا أدبهم الجديد الذي تناقلته الأجيال إلى يومنا هذا.

ولم تقف الهجرة عند أدباء المهجر الأوائل فهي ظاهرة تتسم بالاستمرارية إلا أنها تتأثر بشكل مباشر بأسباب ودوافع كثيرة أهمهما الأسباب السياسية، إذ ماتزال حركة الهجرة العربية مستمرة تبعاً لما تمر به المنطقة من حروب وخلافات جعلت الهجرة خياراً يكاد يكون إجبارياً للعديد من مواطني هذه الشعوب فبعد أن كانت الهجرة فردية وانحصرت ببعض العوائل والشخصيات أصبحت ملاذاً آمناً لقوافل الهاربين من ويلات الحروب وتبعاتها.

اليوم وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على تهجير ملايين السوريين إلى أصقاع الأرض، واستقرار القسم الأكبر منهم في تركيا وأوروبا أصبحت بلاد المهجر بمثابة وطن بديل للمهاجرين فإن كثير منهم بعد

مرور بضع سنوات أيقنوا بهذا الواقع وبدأوا بتأسيس حياتهم فيها، بل إن قسما منهم حصل على جنسية الدولة التي يقيم بها فأصبح مواطنا له ما له من الحقوق وعليه ما على المواطن من واجبات.

وقد بدأت ثمار هذه الهجرة تنضج بعد فترة وتم افتتاح العديد من دور النشر وطباعة عدداً من الكتب الأدبية والدوواين الشعرية حملت أسماءً سورية فجعلت من ولادة أدب المهجر السوري واقعاً ملموساً، ومن بين دول اللجوء تصدرت تركيا قائمة الدول من حيث انتشار الجمعيات الأدبية ومنظمات المجتمع المدني ودور النشر العربية بالإضافة للأمسيات و المهرجانات الشعرية ومهرجانات الكتاب العربي بالإضافة إلى بعض المجلات الدورية التي تعنى بالأدب العربي أو الشرقي عموما كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في نهضة أدب المهجر وأزدهاره.

يعود اختياري لهذا الموضوع بالذات إلى الأسباب التالية:

1- رغبتي في تأريخ مرحلة مهمة يمر فيها الأدب السوري.
2- كوني أحد أبناء الشعب السوري الذي هجر من دياره وفقد العديد من أحبته، وأقرب الناس إليه، فأصبح يعيش مغترباً تلفحه نار الذكريات، وتختلط مشاعره بالحنين إلى أهله وناسه والأمل بعودة كريمة عزيزة.
3- أنني أحد الذين تركوا دراستهم في سوريا وهم على أبواب التخرج وتابعوا بعد سنوات في بلاد المهجر، فقد حصلت على إجازة اللغة العربية وآدابها من جامعة إسطنبول العريقة، وأتابع الدراسات العليا في جامعة مرمرة قسم البلاغة العربية.
4- علاقتي الشخصية مع العديد من الشعراء والأدباء والنقاد وأصحاب دور النشر الموجودين في تركيا وأوروبا مما ساعدني على الحصول على المعلومات اللازمة من أصحاب العلاقة والخبرة.
5- اطلاعي على موضوع المهجر السوري عن قرب بحكم حضوري واشتراكي بالعديد من الأمسيات الشعرية، والمؤتمرات والندوات والمهرجانات الشعرية ضمن الجامعة وخارجها.
6- أن هذا الموضوع لم يدرس من قبل في شعر المهجر السوري.

وقد واجهتني صعوبات كثيرة في دراسة البحث أهمها:

قلة المصادر التي تحدثت عن الموضوع، واعتماد الشعراء على وسائل التواصل الاجتماعي لنشر قصائدهم وقلة الدواوين المطبوعة، وغلبة المقطوعات القصيرة على القصائد الطويلة القابلة للدراسة والتحليل عند بعض الشعراء، بالإضافة إلى عدم تجاوب بعض الشعراء رغم التواصل معهم.

ولكني بدأت بحثي مستعيناً بالله فحصلت على مصادر ومراجع أفادتني في بحثي أهمها:

1- أدب المهجر للدكتور عيسى الناعوري ـ الذي طبعته دار المسار في مصر ١٩٥٨ وقد تحدث عن الأدب المهجري بشكل مفصل.

2- الرثاء، وهو كتاب للأديب والعالم شوقي ضيف تحدث فيه عن مفهوم الرثاء وأنواعه وخصائصه، نشرته دار المعارف في مصر وصدر منه أكثر من طبعة.

3- أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب للدكتور نظمي عبد البديع محمد طباعة دار الفكر العربي وهي دراسة تحليلية نقدية موازنة.

4- قصة الأدب المهجري للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي صادرة عن دار الكتاب اللبناني وهي دراسة شاملة عن الأدب المهجري اشتملت على نشأته، وتطوره، وفنونه، وأعلامه.

5- التشكيل الأسلوبي في الشعر المهجري الحديث (رسالة دكتوراه) محمد الأمين شيخة جامعة محمد خيضر بسكرة؛ وهي دراسة اشتملت على كثير من الجوانب وتخصصت في التشكيل الأسلوبي لشعر المهجر الحديث.

6- الغربة والحنين للوطن في الشعر الفلسطيني (رسالة دكتوراه) أمين الصالح / محمود عبد ربه جامعة الأزهر تناولت الرسالة العديد من الجوانب الأدبية والنفسية في شعر الغربة الفلسطيني.

7- الرثاء في الشعر العربي، من إعداد سراج الدين محمد وطباعة دار الراتب الجامعية، وهي مختارات شعرية لقصائد رثاء من الشعر العربي على مر العصور.

وقد جعلت البحث من بابين:

الباب الأول: تحدثت فيه عن الهجرة والاغتراب بين القديم والحديث، فكان كتوطئة تاريخية للقارئ يبدأ فيها من العصر الجاهلي مرورا بالأموي والعباسي لينتهي به المطاف وقد وصل إلى أدب المهجر الحديث، فيتعرف على نشأته ومدارسه وأعلامه وفنونه، وينتقل منها في شريط زمني ليصل إلى أدب المهجر السوري المعاصر، وصولاً إلى عوامل ازدهار أدب المهجر السوري.

الباب الثاني: تناولت فيه أهم مواضيع الرثاء في أدب المهجر السوري بدراسة تحليلية فنية تضمنت البنية الفكرية والبنية الفنية لقصائد في رثاء الأب والأم والأخ والابن والصديق والوطن، وتناولت الدراسة أيضا قصائد في رثاء بعض الأعلام والرموز.

الباب الأول: الهجرة والاغتراب بين القديم والحديث (توطئة تاريخية)

- **الفصل الأول: الهجرة والاغتراب في الشعر العربي القديم**

1- العصر الجاهلي

إن المنفى الأدبي وشعر الغربة والحنين ليس جديداً تماماً في الأدب العربي فقد شعر الكثير من الشعراء العرب عبر التاريخ بمعنى الاغتراب والبعد عن الوطن، واشتاقوا إلى الأماكن التي اضطروا لتركها، والمنازل التي أجبروا على هجرها، وهكذا صارت المقدمة الطللية (الوقوف على الأطلال) نهجاً تقليدياً استهلت بها المعلقات، والكثير من القصائد العربية المشهورة؛ فها هو امرؤ القيس يبتدئ معلقته بالحنين والشوق إلى منزله القديم وأحبته الذين سكنوا هذه المواقع التي يشير إليها مبيناً إحداثياتها بالتفصيل إذ يقول[1]:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وقوفًا بها صحبي عليّ مطيّهم   يقولون لا تهلك أسى وتجمّلِ

ويغترب أمرؤ القيس قاطعًا الفيافي والقفار يبحث عمن يساعده في استرداد ملك أبيه فيتوجه الى قيصر الروم، وفي طريق عودته أصيب جسمه بالقروح وأحس بدبيب الموت فتضاعف ألمه وازدادت لوعته لإحساسه بالوحشة والاغتراب، فقال وقد شاهد قبر امرأة غريبة بالقرب منه وكأن الغربة قد جعلتهما قريبين:

أجارَتَنا إنَّ الخُطُوبَ تَنوبُ   وإني مُقِيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ [٢]

أجارَتَنا إنّا غَرِيبَانِ هَهُنَا   وكُلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسيبُ

ومن الصور الأخرى لشعر المهجر في العصر الجاهلي ما قاله الشنفرى في لاميته المشهورة (لامية العرب) وقد تمرّد على قبيلة سلامان وخرج عنها، واستبدل بهم قومًا آخرين من السباع والوحوش كما يقول في لاميته: [3]

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم   فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لَأَمَيلُ

---

(1) ديوان امرِئ القيس، دار المعرفة، بيروت ط2 ص14

(2) المصدر نفسه ص83

(3) محمّد رضا مروّة، الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم، صـ 37 – 38

وَفي الأَرضِ مَنأى لِلكَريمِ عَنِ الأَذى   وَفيها لِمَن خافَ القِلى مُتَعَزَّلُ

وَلي دونَكُم أَهلَونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ   وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ

2- عصر صدر الإسلام

ارتبط التقويم القمري بالهجرة فقد كانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة بداية التاريخ الهجري وقد هاجر قبل الرسول وبعده العديد من الصحابة الكرام كانوا قد تركوا كل شيء خلفهم في مكة حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحن إليها رغم استقراره بالمدينة وقد قال عند وداعها مخاطبا مكة بكلمات تعبر عن حبه لها وتعلقه بها "والله إني أعلم أنك خير أرض الله وأحبها إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتُ". [1]

وعندما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعلق أصحابه من المهاجرين بمكة وحزنهم على فراقها دعا الله أن يحبب المدينة إلى نفوس أصحابهم ويبارك لهم فيها ويبعد عنهم الحمى التي أصابت أصحابه عند قدومهم إليها فقال: "اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وانقل حماها إلى الجحفة، اللهم بارك لنا في مدها وصاعها"[2]

وكان من بين الصحابة الذين أصابتهم الحمى بلال الحبشي رضي الله عنه فقد كان يشتاق إلى مكة رغم التعذيب الذي تعرض له فيها، ومن حنينه إليها يتمنى لو قدر له أن يبيت فيها ليلة واحدة يمتع عينه بمنظر نباتاتها الإذخر ويشرب من مائها وينظر إلى جمالها فيقول [3]:

ألا لَيْتَ شِعري هل أبيتَنَّ ليلةً   بفَجٍّ وحولي إِذخِرٌ وجليلُ

وهل أَرِدَنْ يوماً مياه مجنة   وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطفيل

ومع بدء الفتوحات الإسلامية هاجرت قوافل من المسلمين من جزيرة العرب إلى الشام والعراق ومصر وغيرها من الدول التي انضمت وتوحدت تحت راية الإسلام فقرر العديد من الفاتحين وغيرهم ممن لحقهم الاستقرار في الدول الجديدة بعد أن دانت بالإسلام فها هو الشاعر " الصمة القشيري"

(1) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد يوسف بن عبد الله القرطبي ج 2 ص288

(2) سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي ج1 ص 558

(3) المصدر نفسه ج1 ص557

يشتاق أرضه فيصبح الحنين إليها شغله الشاغل وهاجسه الذي لا يفتر أو ينقطع. ويحس بأن كبده ستتمزق شوقاً ولهفه على تلك الايام الغابرة والتي قد لا تعود، فلا يجد عزاءً إلا في البكاء لعله يخفف عليه بعض ما يعانيه فيقول [1]

وأذكرُ أيامَ الحِمَى ثمّ أنثني	على كبدي من خشيةٍ أن تَصَدّعا
فليستْ عَشِياتُ الحِمى برواجعٍ	عليكَ ولكن خلِّ عينيكَ تدمعا

"ولقد كان للمهاجرين الفاتحين حنين جارف الى أوطانهم وشوق لا ينقطع إلى أهلهم وذويهم وقد انطقهم ذلك الحنين شعراً عذباً فيه ذوب قلوبهم وعصارة لأحاسيسهم ومشاعرهم التي صوروها لنا فكأنهم نقلوا الينا ما يحسون، غير أن كثيراً من هؤلاء لم تخلد أسماءهم إما لأنهم لم يكونوا مشهورين ، أو أن شعرهم كان قليلاً قد اقتصر على غرض واحد محدود فمن هؤلاء المهاجرين" الفاتحين من ظل يكرر بطرفه صوب وطنه ـ نجد ـ رغم بعده عنه واستحاله رؤيته له ويحن إليه ويحسب ان ترابه مسك يتضوع ـ ويجمل من إقحوانه وشيا محبرا كما يحن الى أرض الحجاز، ويتطلع الى خيامه بنجد، ويدفعه الحنين الى البكاء ولن يجد قلبه راحته فهو أما أن تحرقه الذكرى أو مشغول بالحرب" [2] ومن هؤلاء من ذكرهم ياقوت الحموي بعض أشعارهم في معجم البلدان[3] :

أكرر طرفي نحو نجد وإنني	إليه وإن لم يدرك الطرفُ أنظرُ
حنينًا إلى أرض كأن ترابَها	إذا مُطِرت عودٌ ومِسك وعنبر
بلاد كأن الأقحُوان بروضة	نَور الأقاحي وشيُ بُرد مُحبّرُ
أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي	خيامٌ بنجد دونها الطرفُ يقصر
وما نظري من نحو نجد بنافعي	أجل لا، ولكني إلى ذاك أنظر
متى يستريح القلب إما مجاوز	بحرب وإما نازح يتذكر

---

(1) الحماسة البصرية، أبو الحسن البصري ج2 ص 138

(2) أمين صالح محمد عبد ربه الغربة والحنين في الشعر الفلسطيني بعد المأساة ص 145 (رسالة دكتوراه)

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ 5 صـ 262-263

3- العصر الأموي

بدأ العصر الأموي بعد تنازع للسطلة وتشكل أحزاب وشيع إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وبقيت هذه الشيع متحاربة لفترة ليست بالقصيرة ونتيجة لهذا اضطر بعض الشعراء للتخفي والتصعلك بعد أن أصبحوا مطلوبين للدولة الأموية أثر مشاركتهم النزاع ضد بعض أمرائها وملوكها، ومتخفين يعانون غربة يقضونها بين الكهوف والمغارات والفيافي، فها هو عبد الله بن حجاج الثعلبي الذي قاتل مع الخوارج جيوش عبد الملك بن مروان فكانت الغلبة للأمويين على الخوارج وأصبح عبد الله من أوائل المطلوبين فيقول بعد أن ضاقت عليه الدنيا برمتها واصفاً رعبه وخوفه:[1]

رأيتُ بِلادَ اللهِ وَهيَ عَريضَةٌ   عَلى الخائِفِ المَذعورِ كُفَّةُ حابِلِ

يُؤَدّى إِلَيهِ أَنَّ كُلَّ ثَنِيَّةٍ   تَيَمَّمَها تَرمي إِلَيهِ بِقاتِلِ

وبعد أن رست الأمور واستقر الحال وتقلد الأمر بني الأمية حدثت نقلة نوعية في تاريخ الشعر العربي وابتدعت مواضيع جديدة فيه، فأتيح المجال للشعر السياسي وغيره وانتشر الغزل بشقيه الصريح والعذري، فنرى العشاق وعلى رأسهم مجنون ليلى قيس ابن الملوح يهيمون في شرق البلاد وغربها لعلهم يجدون إلى من أحبوا سبيلا؛ وفي أشعار مجنون ليلى نجد مشاعر الفراق والغربة واضحة فتراه يبكي الديار حتى قبل أن يفارقها يقول :[2]

تَمَتَّع مِن ذَرى هَضَباتِ نَجدٍ   فَإِنَّكَ مُوشِكٌ أَلّا تَراها

أُوَدِّعُها الغَداةَ فَكُلُّ نَفسٍ   مُفارِقَةٌ إِذا بَلَغَت مَداها

ويحتل جبل الريان مكانة عظيمة في قلب الشاعر جرير فهو لا يكاد يبتعد عنه حتى يحن إليه؛ كيف لا وهو قريب من مساكن محبوبته وأنسامه تختلط بأنفاسها فتهب عليه مصطحبة تلك الأيام الجميلة واللحظات الماتعة التي قضاها هناك يقول: [3]

يَا حَبَّذَا جَبَلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ   وَحَبَّذَا سَاكِنُ الرَّيَّانِ مَنْ كَانَا

(1) ابن عساكر، تاريخ دمشق ج7 ص365

(2) ديوان قيس بن الملوح ص41

(3) ديوان جرير ص 493

وَحَبَّذا نَفَحاتٌ مِنْ يَمانِيَّة   تَأتِيكَ مِنْ قِبَلِ الرَّيَّانِ أحيانَا

وبعض الشعراء تجاوزت غربته الجزيرة العربية فأصبح بعيداً جداً عنها فها هو الطرماح يجتاز حدود الجزيرة العربية إلى إيران حتى يصل إلى بحر قزوين شمالاً، وهناك تلوح له الثريا في كبد السماء فتذكره بموطنه ويشوقه البرق إلى أهله لأنه يلمع عند أحبابه الذين ابتعد عنهم: [1]

طَرِبتَ وَشاقَكَ البَرقُ اليَماني   بِفَجِّ الريحِ فَجِّ القاقُزانِ

أَضَوءُ البَرقِ يَلمَعُ بَينَ سَلمى   وَبَينَ الهَضَبِ مِن جَبَلَي أَبانِ

أَلَم تَرَ أَنَّ عِرفانَ الثُرَيّا   يُهَيِّج لي بِقَزوينَ اِحتِزاني

أما النساء فهن أشدّ عاطفة وأسخى دمعاً وأكثر تعلقاً عند الفراق، ومن الأبيات التي تشهد بذلك قصيدة لميسون بنت مجدل الكلابية التي تزوجها الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان فنقلها من شظف وقساوة حياة البداوة إلى رخاء وترف القصور، ولكنها تحن إلى بيتها البسيط وحياتها القديمة وترفض كل أشكال الترف فلا ترضى سوى باديتها وطناً شريفاً تحن إليه وتبغيه تقول: [2]

فما أبْغي سوى وطني بديلا فحسبي ذاكَ من وطن شريِف

لَبَيْتٌ تخفِقُ الأرواحُ فيه   أحبُّ إليَّ من قصرٍ مُنيفِ

ولُبْسُ عباءةٍ وتقَرُّ عيْني   أحبُّ إليَّ من لِبْسِ الشُّفوفِ

خشونَةُ عِيشتي في البدْو أشهى   إلى نفسي من العيشِ الظَّريفِ

فما أبغي سوى وطني بديلاً   وما أبهاه من وطن شريف

4- العصر العباسي

في العصر العباسي زاد اتساع الدولة، وتباعدت أراضيها وانفتحت على جغرافية متنوعة ازداد فيها السفر والتنقل، فنجد هاجس الغربة واضحاً في أبيات أبي الطيب المتنبي والتي يصف فيها أيام اغترابه في بلاد فارس، ذلك البلد الذي شعر فيه المتنبي بغربة كبيرة فوجوه الناس ليس كوجهه العربي وهو غريب

---

(1) ديوان الطرماح ص297 دار الشرق العربي حلب – الطبعة الثانية تحقيق عزة حسن 1994

(2) شاعرات العرب – عبد البديع صقر ص 396

اليد فلا يملك شيئاً في هذا البلد، وغريب اللسان إذ لا يعرف لغتهم ولا يعرفون لغته، بلد يفتقد فيه العربي كل شيء رغم الحضارة والتمدن ورخاء العيش هناك يقول: [1]

مغاني الشعب طيبًا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمانِ
ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريبُ الوجهِ واليد واللسانِ
ملاعبُ جنَّة لو سار فيها سليمانُ لسار بِترْجُمانَ

ومع كل غربة هناك فراق، فراق نودع فيه الأهل والدار والأحبة وقد وصف ذلك ابن زريق البغدادي في قصيدته المشهورة (لا تعذليه) بعد أن ترك زوجته التي شغف بها حبًا في بغداد تبكي فراقه ويبكي فراقها وذهب في رحلة شاقة وطويلة إلى الأندلس يطلب الرزق بمدح الأمراء ونيل عطاياهم يقول فيها:[2]

لا تَعذَلِيه فَإِنَّ العَذلَ يُولِعُهُ قَد قَلتِ حَقاً وَلَكِن لَيسَ يَسمَعُهُ
اِستَودِعُ اللهَ فِي بَغدادَ لِي قَمَراً بِالكَرخِ مِن فَلَكِ الأَزرارَ مَطلَعُهُ
وَدَّعتُهُ وَبوُدّي لَو يُوَدِّعُنِي صَفوَ الحَياةِ وَأَنّي لا أَودعُهُ
وَكَم تَشبَّثَ بي يَومَ الرَحيلِ ضُحَىً وَأَدمُعِي مُستَهِلّاتٍ وَأَدمُعُهُ

وينتقل هذا الفن من الشرق إلى الغرب حيث غادرت قوافل المهاجرين العرب إلى الأندلس، حيث المهجر العربي القديم ومن أوائل من تناول هذا الموضوع الشعري الأمير عبد الرحمن الداخل عندما رأى نخلة مفردة بالرُّصافة، هذه النخلة التي نبتت في بعيدة عن موطنها الأصلي في الشرق تشبه حال الشاعر الذي هو بعيد عن موطنه الأصلي فيقول في قصيدته:[3]

تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بيتي وعن أهلي
نشأتِ بأرض أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُكِ في الإقصاءِ والمُنْتأى مثلي

---

(1) ديوان المتنبي ص541

(2) السراج القاري البغدادي، مصارع العشاق ج1 ص23

(3) قصة الأدب المهجري، عبد المنعم خفاجي، ص8

نجد أنّ الهجرة والاغتراب رافقت العربي في كل زمان ومكان، وصورها الشعراء بشتى الألوان معبرين عما يجول في خواطرهم ويصور اغترابهم وحنينهم إلى موطنهم الأصلي؛ إلا أن هذه الأشعار بقيت مقطوعات قصيرة انفرد بها بعض الشعراء على اختلاف الأزمنة ولم تكن موضوعاً جديداً وأدباً منفرداً بذاته إلى أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حيث ولد أدب المهجر الحديث في الأمريكيتين.

- **الفصل الثاني: المهجر في الشعر العربي الحديث (النشأة والتطور)**

هاجرت جماعات من العرب، وبخاصة من سوريا ولبنان، في القرن التاسع عشر والقرن العشرين إلى العالم الجديد، وأقاموا في كندا والولايات المتحدة وفي دول أمريكا الجنوبية، ومن بينها البرازيل والأرجنتين وشيلى وفنزويلا، ونقلوا اللغة العربية والأدب العربي إلى تلك المهاجر البعيدة، فأنشأ أولئك المهاجرون في تلك الديار النائية أدباً يعبرون به عن مشاعرهم، وعواطفهم، ويتحدثون فيه عن غربتهم وحنينهم إلى أوطانهم، ويصفون فيه البلاد التي أقاموا فيها، ومظاهر الحضارة السائدة في حياة الناس هناك، كما يصفون فيه حياتهم وما تعرضوا له من عناء وشقاء وتجارب مريرة مثيرة؛ وكان أدبهم هذا هو الأدب المهجري [1]

وتعود أسباب هذه الهجرة إلى عوامل كثيرة كان أهمها تردي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في البلاد بداية القرن العشرين نتيجة تسلّط بعض الولاة الذين استغلوا مناصبهم لقهر الناس أواخر الخلافة العثمانية، وكان الشعراء ممن استقروا في أمريكا الشمالية أكثر اندماجاً واستقرارهم في حياتهم الجديدة قياساً بنظرائهم من شعراء المهجر الذين اتجهوا إلى أمريكا الجنوبية ويتضح ذلك جلياً في أشعارهم وكتاباتهم ونجد ذلك في أشعار إلياس فرحات وهو أحد رواد أدب المهجر الجنوبي إذ يقول في إحدى قصائده المشهورة: [2]

طوى الدهرُ من عمري ثلاثين حِجّةً	طويتُ بها الأصقاعَ أسعى وأدأبُ
أغرّبُ خلفَ الرّزقِ وهوَ مُشَرِّقٌ	وأُقسمُ لو شرَّقْتُ راح يغرّبُ

(1) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت – لبنان، ج3 ص 54

(2) العروبة تكرم الشاعر الياس فرحات، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي للإقليم السوري ص36

ونرى الشاعر القروي (رشيد سليم الخوري)، الذي يصوغ الحالة النفسية التي باتت تتنازعه، فهو يتأرجح بين الإصرار على طلب الرزق والبقاء تكويه نار الفراق، وبين غلبة الحنين ولوعة الفراق على تحقيق ذات الشاعر، فتحدثه نفسه بالعودة إلى حضن الوطن يفترش ترابه ويلتحف سماءه، فنجد ذلك جلياً في نص شعري واحد، يبدأ بالتردد، وينتهي بوصف الحالة الجسدية والنفسية في المهجر بين أعاجم لا يفهمون العربية ولا يتكلمون بها؛ وفيها يقول:[1]

ناءٍ عن الأوطان يفصلني   عمّا أحبُّ البرُ والبحرُ
في وحشة لا شيء يؤنسها   إلاّ أنا والعودُ والشعرُ
حولي أعاجمُ يرطنون فما   للضادِ عند لسانهم قَدْرُ
ناسٌ.. ولكن لا أنيس بهم   ومدينةٌ.. لكنها قَفْرُ

ويعلن نسيب عريضة ندمه إزاء الخطوة المتعجلة التي خطاها، واتخاذه القرار المتهور تحت ظروف مادية قاسية جعلته يسارع إلى الهجرة فلاقى ما لاقاه من قهر وفقر وهم وجوع؛ فيقول:[2]

ظلامُ الويل قد جَنّا   وبوقُ الهمِّ قد رَنَّا
فنم يا طفل لا يَهْنَا   غنيٌّ باتَ شبعانا
ألا.. يا هَمُّ يكفينا   لقد جَفّت مآقينا
لو أنَّ الدمعَ يغذونا   أكلنا بعض بلوانا

هذا التشاؤم، والقهر المدمّر، والألم الكبير يعم شعر شعراء المهجر الأوائل، الذين مضوا مع أحلام وردية، تنصب على المال والجاه، وتقليد الغرب، ولم يحقق أغلبهم أي شيء من الحلم الذي هاجروا وتغربوا من أجله، فكان نصيبهم منه الألم والحسرة على حلمهم الذي ضاع وبقيت الخيبة تلاحقهم أينما حلوا. هذه الأشعار كانت تعكس واقع المهاجرين حيث كانوا يعانون من ضنك العيش والعزلة المجتمعية في غربتهم، فقد كانت بداية الطريق لكثير منهم صعبة وشاقة ولعل هذا من الأسباب الرئيسية التي أجبرتهم على تشكيل تجمعات أدبية كان لها العديد من الثمار الإيجابية وأهم هذه الجماعات:

---

(1) موقع الديوان

(2) في الميزان الجديد، محمد مندور 1984 الطبعة الأولى مطبعة كوتيب تونس ص94-95

1- الرابطة القلمية (المهجر الشمالي)

أنشأت بنيويورك في عام 1920م وتُنسب إلى القلم الذي شرفه الله تعالى في الذكر الحكيم، وقد أسسها الأديب المهجري صاحب جريدة السائح المشهورة عبد المسيح حداد، يرئسها جبران عميداً، ويعاونه في إدارتها، ميخائيل نعيمه مستشاراً، ووليم كاتسفليس خازناً، ويعمل تحت لوائها سبعة آخرون، يحملون اسم العمال هم: إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة، وعبد المسيح حداد، ورشيد أيوب، وندره حداد، ووديع باحوط، وإلياس عطا الله [1].

يرى ميخائيل نعيمة أن الرابطة القلمية تَضم ـفي الأصلـ عشرة أعضاء أساسيين ممن حضروا تأسيس الرابطة، وغاب عنهم نعمة الحاج، وأمين الريحاني الذي لم يكن على وِفاق مع جبران خليل جبران، وقد كتب ميخائيل نعيمة مقدمة لدستور الرابطة ألقى بها الضوء على جوهر هذه الرابطة وغاياتها، ورسائلها الفنية وعرفَ بها رسالة الأدب والأديب خير تعريف[2] .

2- العصبة الأندلسية (المهجر الجنوبي)

قامت هذه الجمعية بالمهجر الأمريكي الجنوبي في البرازيل بمدينة سان باولو 1937 م، وكان مؤسسها الأول هو الشاعر ميشال معلوف تولى رئاستها، وخلفه بعد ذلك الشاعر رشيد سليم الخوري الملقب بالشاعر القروي ومن أسرته: الشاعر فوزي المعلوف، ثم رأسها من بعده شفيق المعلوف ورياض المعلوف، والشاعر جورج حسون المعلوف (آل المعلوف) [3].

ويشير اسم "العصبة الأندلسية" إلى مدى تأثر المهجريين بالأدب الأندلسي، وخاصة بالروح الغنائية، والموسيقى في الموشحات، وضمت هذه العصبة أدباء، وشعراء، وكتَّاب نقلوا تجاربهم وصورا حياتهم ومعاناتهم في مغتربهم، وقد تشكلت في نفس الوقت بعض الجماعات الأدبية كرابطة منيرفا التي أسسها الشاعر والطبيب المهجري المصري أحمد زكي أبو شادي عام 1948م في نيويورك والرابطة الأدبية، ولكن لم يكتب لهما الاستمرار ولم تتركا أثراً أدبياً بارزاً.

---

(1) أدب المهجر للدكتور عيسى الناعوري ، ط 3 ص 22

(2) التشكيل الأسلوبي في الشعر المهجري الحديث (رسالة دكتوراه) محمد الأمين، جامعة محمد خيضر بسكرة ص12

(3) المصدر نفسه ص 13

ساهمت كل هذه التجمعات الأدبية التي نضجت وتطورت بالحفاظ على الهوية العربية على الرغم من قسوة دوافع التغيير "قد ثبت المهجريون على لغتهم، وأخلصوا لها ولتراثهم، ثم تناولوا من الجديد ما أعانهم على أن يجعلوا لغتهم وافية بالتعبير عن مناحي النشاط الحضاري البشري في العالم الجديد في العصر الذي يحيونه"[1]

وتمر الأيام على دولنا العربية وتعود قوافل النازحين والمهاجرين من جديد وهذه المرة من فلسطين بعد أن هجرتهم إسرائيل في منتصف القرن المنصرم تقريبا بما يعرف إلى اليوم بأحداث النكبة، " فقد فجرت المأساة ينابيع الشعر لتقطر حسرات وأسى لما كابده شعبنا العربي في فلسطين، وقد تتابع الشعراء منذ حدثت المأساة سنة ١٩٤٨ وحتى يومنا هذا يصورون حنينهم الطاغي الى وطنهم الحبيب تلذعهم اللوعة لفراقه.

إن أدب المهجر الفلسطيني واسع جداً لا يكاد يكفيه كتاب أو بحث وقد تناوله الباحثون بالدراسة والتحليل منذ عقود ولا يسعنا في هذا البحث إلى أن نمر على بعض النماذج الشعرية في الأدب الفلسطيني وما يحمله من أمل العودة إلى جانب الحنين والشوق إلى الديار بالإضافة إلى شعر وصف النكبة وتبعاتها فها هي الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان تصور لنا حال نازحة فلسطينية

التجأت إلى أحد الكهوف داخل وعلى صدرها ــ من زوجها الشهيد ــ رضيع يرجف من البرد ثم في

لحظة كأنها حلم تلوح لها صور بيتها القديم قبل أن تمتد إليه يدي البغي تقول الشاعرة في قصيدة طويلة بعنوان: "رقية"[2]

هنالك ضمَ (رُقيَة) كهفٌ   رغيب عميق كجرح القدر

تدور به لفحات الصقيع   فيوشك يصطك حتى الصخر

وتجمد حتى عروق الحياة   ويطفأ فيها الدم المستعر

وفي مثل تهويمة الحالمين   وغيبوبة الأنفس الصَافيه

(1) أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب، نظمي عبد البديع محمد ص109

(2) الأعمال الشعرية الكاملة، فدوى طوقان ص 114-115

أطلَت على أفق الذكريات وفي عمقها لهفة ظاميه

تعانق بالروح طيف الديار وتلثم تربتها الزاكيه

أما الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد "شاعر النكبة والثورة والعودة" كما يقال عنه الذي ولد في حارة الزيتون في غزة وقضى طفولته وشبابه بين حقولها وبيوتها، وفي إحدى قصائده (هناك بلادي) يشير الى بلاده التي اغتصبت وأصبحت بعيدة عنه، لأنه لا يستطيع العودة اليها بعد أن اغتصبها المعتدي الأثيم، فأخذت تصرح وتئن تحت الدمار ثم يشير الى ذكرياته التي خلفها هناك وحقوله وزروعه وأناشيده مما يجعل حنينه إلى كل ذلك جارفاً ملحاً يشق عنان الخيال فيقول:[1]

هناك هناك وراء الحدود هناك بلادي تراث الجدود

هناك . هناك. أغانى صباي ونجوى شهابى وذكرى هواى

هناك تنادى علي التلال تقول : حبيي حبيبى تعال

وألف حنين وألف سؤال يشق الي ، عنان الخيال

وما زالت العودة هي الحلم الذي يرافق كل فلسطيني هاجر منها ومن هؤلاء الشعراء عبد الكريم الكرمي أبو سلمى والذي قضى حياته بين فلسطين وسوريا إلى أن استقر بدمشق وعمل فيها بالمحاماة والتدريس، ويعد الكرمي من أيقونات شعر العودة الفلسطيني ومن أشهر قصائده بائية ذكر في مطلعها دمشق وذكرياته فيها، ثم انتقل إلى إلى فلسطين واصفًا شوقه لها وأنه لا يطيب له العيش بعيدا عن سهولها وهضابها.

فهو يشتاق إلى كل شيء فيها، فما تزال الجداول والمآذن والقرى تناديه متحدثاً عن ارتباطه بجذوره وأصله وبعدها يجيب سائليه عن العودة بعد الغياب الطويل فيجيب أنها قريبة ويؤكد بأنها ستكون ملحمية وستسمع الأجيال وقع خطانا عندما نعود عودة كلها عز وإباء يقول:[2]

فلسطينُ الحبيبةُ كيف أحيا بعيداً عن سهولكِ والهضابِ

تناديني الجداولُ شارداتٍ تسيرُ غريبةً دون اغترابِ

---

(1) مع الغرباء، هارون هاشم رشيد ص36

(2) ديوان المشرد، أبو سلمى ص 53 -57

تناديني مآذنُكِ اليتامى تناديني قراكِ مع القبابِ
ويسألُني الرّفاقُ ألا لقاءٌ وهل من عودةٍ بعد الغيابِ؟
غداً سنعودُ والأجيالُ تصغي إلى وقعِ الخُطا عند الإيابِ
مع الأملِ المجنَّحِ والأغاني مع النسرِ المحلِّقِ والعقابِ

وفي حديثنا عن شعر الهجرة والاغتراب لابد أن نعرّج على شعراء العراق الذين اغتربوا قديماً وحديثاً لأسباب سياسية في معظمها، فبعضهم فضل الهجرة للبحث عن مساحة أكثر حرية، وقد تعرض بعض الشعراء والأدباء للنفي واضطر للهروب من العراق بعد أن تعرض فيها للمطاردة والملاحقة كما حدث مع عبد المحسن الكاظمي الذي هرب إلى مصر ولكن العراق لم يغادر مخيلته، فقلبه معلق ببغداد بعد أن خلّف كل شيء وراءه وراح ينتقل من بلد إلى أخرى واصفاً رحلة اغترابه وهجرته وما تركت بنفسه من مشاعر سكبها في قصيدة طويلة بعنوان "رحلة مصر" يقول: [1]

جوىً أودى بقلبك أم وجيـبُ غداة حدا بك الحادي الطروبُ
بعدت عن الديارِ وصرت تدعو على البعـدِ الديارَ ولا مجيبُ
رحلت وأنت للعلياء صـــادٍ تحوم على المـوارد أو تلوبُ
وخلفـت المنازل آنســـاتٍ سروب الغيد يتبعها سـروبُ
وفي مصرٍ أراك وأنت لاهٍ وقلبك في العراق جوىً يذوب

وكان بعضهم قد اختار الهجرة بمليء إرادته كما حدث مع الشاعر العراقي كاظم جواد الذي استقال من وظيفته في وزراة الثقافة والإعلام العراقية عام 1971 واستقر في برلين بعد أن تنقل بين العراق وسوريا وأمريكا والهند، ورغم بعده عن العراق إلا إنه "حينما يسمع ببشرى انتصار ثورة العراق يتمنى أن تكون له أجنحة لتحمله في الفجر الى وطنه "متلألئًا " مثل السيول متدفقا كمياه دجلة فيقول: [2]

من أين؟ من وطني البعيد أيا عـراق
لوأن لي في الفجرأجنحة لجئتك بالعناق

---

(1) مجلة المقتبس – العدد 9.

(2) من أغاني الحرية– كاظم جواد 194

متلألأ مثل السيول، مصفقا كمياه دجلة

من فورة الفرح العميق، من الربيع، من انتصاري

أما الشاعر بدر شاكر السياب والذي يعد من مؤسسي الشعر الحر وقد ترك العراق عام 1952 اضطُر إلى مغادرة بلاده والتوّجه إلى إيران ثم الكويت عقب مظاهرات اشترك فيها؛ وفي غربته يتذكر العراق ويقول إن شمس بلاده أجمل من سواها وحتى الظلام يراه أجمل من غيره، فتراه يتحسر على لحظات نوم على وسادة تفوح منها رائحة الوطن يقول: [1]

الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام

حتى الظلام هناك أجمل، فهو يحتضن العراق

واحسرتاه، متى أنام

فأحس أن على الوسادة

من ليلك الصيفي طلا فيه عطرك يا عراق؟

بين القرى المتهيبات خطاي والمدن الغريبة

غنيت تربتك الحبيبة

- **الفصل الثالث: المهجر العربي السوري**

مع بداية العقد الثاني للقرن الواحد والعشرين ومع انطلاق ثورات الربيع العربي حدث تحول جذري وانتقال نوعي في جميع نواحي الحياة وخاصة الفكري منها، فقد أتاحت وسائل التواصل الاجتماعي فضاءً واسعاً لتبادل الأفكار وانتشار الفكر الثوري والخروج على فساد الحكومات.

ومع وصول الأحداث في سوريا إلى وضع إنساني خطير بدأ النزوح داخلياً تحت سماء سوريا، فخرج كثير من الشعراء يحملون ذكرياتهم وأحلامهم على أرض الوطن، ولكن في بقعة قد تكون أكثر أمانا من بيته أو منطقته، فها هو الشاعر نادر شاليش رحمه الله يرثي بيته وبلدته بقصيدة مشهورة بعنوان "رسالة الروح" يتحدث فيها عن إرسال روحه إلى داره ويحمّلها رسائلَ كثيرة يقول:[2]

أَرْسَلْتُ رُوْحِيْ إِلَى دَارِيْ تَطوف   لَمَّا خُطَانَا إِلَيْهَا مالَهَا سُبُلُ

---

(1) أنشودة المطر، بدر شاكر السياب ص124-127

(2) كتاب أورينت 3، نادر شاليش الأطميات والريحانيات ص 59-60

أَنْ تَسْأَلَ الدَّارَ إِنْ كانَتْ تَذَكَّرُنَا   أَمْ أَنَّهَا نَسِيَتْ إِذْ أَهْلُهَا رَحَلُوا

هَيْهَاتُ يَادَارُ أَنْ تَصْبُو الحَيَاةُ بِنَا   وَيَرْجِعُ الْجَمْعُ بَعْدَ النَّأْيِ مُكْتَمِلُ

لَكِنَّ رُوْحِيْ سَتَبْقَى فِيْهَا سَاكِنَةً   مَالِيْ بِأَطْمَةَ لا شَاةٌ ولا جَمَلُ

لابُدَّ لِلَّيْلِ مِنْ صُبْحٍ يُبَدِّدُهُ   وَيَسْطَعُ النُّوْرُ وَالظَّلْمَاءُ تَرْتَحِلُ

وبعد تأزم الوضع داخلياً مع اشتداد الوضع الأمني خطورةً تحول النزوح الداخلي إلى هجرة خارجية نحو بلاد لها لغة مختلفة وثقافة مختلفة كتركيا وألمانيا وهولندا والنمسا والسويد وغيرها، ليبدأ بعدها وبشكل تدريجي تشكل وبلورة شعر المهجر السوري ويمر في أغلبه بمراحل تعبر عن تجربة الشاعر فقد يبدأ الحنين منذ اللحظات الأولى، ويتحول مع الزمن إلى صراع نفسي بين الذاكرة والواقع، وبعدها يحصل نوع من الراحة والتأقلم عندما يفهم أن البيئة الجديدة سوف تقدم له منبرا يستقبل فكره الثوري الذي رفضته بلاده، فتعوّض حضارةُ الرقي الإنساني والانفتاح الثقافي قليلاً عن فكرة الوطن ليصير الوطن الحقيقي عند بعض الذين نجحوا في الخارج أبعد من الحدود الجغرافية للوطن العربي، بل ممتدًا على الأرض كلها.

ولقد بدأ أدب الهجرة السوري يتبلور ويزدهر وينجح، لينتقل من مرحلة مؤقتة وتعبير عن المشاعر والأحاسيس إلى ظاهرة واسعة الانتشار، وانتقل العمل من فردي شخصي إلى مؤسساتي جماعي وكل هذا لم يكن وليد الصدفة، بل ساهمت بوجوده عوامل كثيرة أدت لأزدهار وتطور أدب المهجر.

- **الفصل الرابع**: **عوامل ازدهار أدب المهجر السوري**

1- عوامل عامة (جميع دول المهجر)

أ - حرية التعبير

بعد أن كان المثقفون والأدباء يعانون من تقييد أقلامهم وتكميم أفواههم عن الخوض بالسياسية، وانتقاد السلطة أتاحت لهم معظم دول المهجر الحرية التامة للتعبير عن أفكارهم ورؤيتهم دون الخوف من السجن، أو الملاحقة الأمنية والقضائية.

ب- انتشار وسائل التواصل الاجتماعي

مثلت ثورة الأنترنت والتكنولوجيا قفزة نوعية في نقل كم هائل من المعلومات والبيانات بما فيها الصور ومقاطع الفيديو، فكانت وسائل التواصل الاجتماعي وفي مقدمتها "فيسبوك" فضاءً واسعاً ومنبراً حراً للجميع كلٌّ يعبر عن رأيه كيفما يشاء، وهذا ما استفاد منه الأدباء والشعراء في نشر قصائدهم ونتاجهم الأدبي على شريحة واسعة جداً، ودون أي تكلفة للطباعة والنشر والتوزيع فأصبحت بعض المجموعات الأدبية تعتمده بشكل أساسي لانتقاء القصائد وتقييمها ونشرها ونقدها ضمن معايير الرابطة أو المجموعة الأدبية، ولعل من أشهر المجموعات والصفحات في فيسبوك التي تنشط في هذا المجال على سبيل المثال لا الحصر "رابطة الشعراء العرب" حيث توجد معايير"شعرية" صارمة لنشر القصائد واعتمادها وهذا ما جعلها محط أنظار النخب.

2- عوامل خاصة (أدب المهجر في تركيا)

أ-وجود أكبر عدد من اللاجئين السوريين في تركيا

تحتضن تركيا أكبر عدد من اللاجئين السوريين قياساً بدول الجوار والمهجر الأخرى حيث بلغ العدد الإجمالي وفقا لآخر إحصائية قامت بها جمعية اللاجئين 3 ملايين و 762 ألفًا و 385 شخصاً يتركز معظمهم في إسطنبول والولايات الجنوبية ،وهذا العدد يشكل قاعدة جماهيرية واسعة وأرضية خصبة لأي نشاط ثقافي وأدبي عربي يقام في تركيا.

ب- انتشار واسع لدور النشر العربية

كان الحصول على الكتب العربية بداية اللجوء في تركيا مسألة صعبة جداً ومستحيلة في بعض الأماكن، واقتناء الكتب العربية كان محصوراً بالذين استطاعوا إدخال كتبهم معهم في رحلة لجوءهم وهم قلّة، ومع استمرار المشكلة رغم استقرار عدد كبير من السوريين بشكل دائم كان لابد من حل يضمن للجالية العربية عموماً والسورية خصوصاً اقتناء ما يشاؤون من الكتب العربية دون الحاجة إلى استيرادها من خارج البلاد، فكانت دار إتقان للنشر والتوزيع أول دار نشر عربية يتم افتتاحها منطقة فاتح في إسطنبول عام 2016 وكانت خدماتها محصورة بنشر كتب تعليم اللغة العربية وقواعدها للأطفال بالإضافة إلى

الوسائل التعليمية ومستلزمات رياض الأطفال والمدارس الإبتدائية؛ هذا الأمر كان بداية لافتتاح العديد من المشاريع المشابهة وصل عددها تقريبا إلى 16 دار نشر عربية في عموم تركيا بالإضافة لدار إتقان.

ح – ازدهار حركة الترجمة من اللغتين العربية والتركية

كانت الترجمة الأدبية من التركية إلى العربية ومن العربية إلى التركية قليلة جداً، وتكاد تكون محصورة بالكتب الدينية وكتب تعليم اللغة بالإضافة إلى بعض الأبحاث والدراسات، ولكن قدوم أعداد كبيرة من اللاجئين العرب، ووجود نسبة كبيرة من النخب المتعلمة بينهم ساهم في ازدهار حركة الترجمة من وإلى اللغتين.

د-انتشار الجمعيات الأدبية ومؤسسات المجتمع المدني التي تعنى بالأدب والهجرة:

مع انتشار دور النشر وتوسع الحركة الأدبية قامت بعض المؤسسات بتشكيل اتحادات وجمعيات بهدف توحيد الكلمة وتوسيع الرؤية، والارتقاء بالعمل المؤسساتي في هذا المجال، فكان لها أثراً اجتماعياً كبيراً في تبني المواهب، وصقلها وتقديمها للجمهور بطريقة مناسبة وفاعلة من خلال النشاطات التي نظّمتها، إلى جانب هذا يكمن الدور الأساسي لهذه الجمعيات والمؤسسات في تمثيل الجاليات العربية رسمياً أمام الدولة ومن خلالها يتم خطاب الجمهور والتأثير به ما يضمن استمرارها وتطورها، ولعل عدم الحصول على تراخيص رسمية لبعض الجمعيات أدى إلى اختفائها أو اندماجها بجميعات أخرى مرخصة، وسنتكتفي في هذا البحث بذكر بعض الجمعيات البارزة على سبيل المثال لا الحصر (أتحاد كتاب سورية الأحرار - جمعية بيت الإعلاميين العرب في تركيا - جمعية بيت فلسطين للشعر وثقافة العودة- الجمعية الدولية للشعراء العرب- الجمعية الدولية لناشري الكتاب العربي - ملتقى الأدباء والكتّاب السوريين)

هـ - إقامة المعارض والندوات والفعاليات الأدبية:

كانت المعارض والمهرجات والفعاليات الأدبية إحدى ثمار تشكيل العديد من الجمعيات الأدبية، وتوسع دور النشر في تركيا، ولعل أهم معارض الكتب هو المعرض الدولي للكتاب العربي الذي يقام سنوياً في إسطنبول، ويشمل دور نشر من مختلف دول العالم، وأما الشعر فيعتبر المهرجان الأول للشعر العربي في إسطنبول الذي أقيم على مسرح كلية الألهيات في جامعة مرمرة من أهم وأضخم المهرجانات والذي أصبح مهرجاناً سنوياً تلته أمسيات ومهرجانات شعرية مختلفة نذكر منها (ملتقى على ضفاف الوطن في إسطنبول 2019 - أمسية ضياء الحروف الشعرية في إسطنبول 2019 بالإضافة للعديد من الأمسيات المحلية والتي تم بعضها عن بعد مع انتشار جائحة كورونا).

- **الفصل الخامس: عن الهجرة والرثاء**

الهجرة

جاء في المعجم الوجيز [1] هجر: هاجر، تباعد، والشيء أو الشخص هاجر وهجرانا: تركه وأعرض عنه، وهاجر: ترك وطنه، من مكان كذا أو عنه: تركه وخرج منه إلى غيره، فالهجر معناه: الترك والإعراض والتباعد، والهجرة ترك الوطن.

وجاء في المعجم الوسيط [2] الهجرة: الخروج من أرض إلى أخرى، وانتقال الأفراد من مكان إلى آخر سعياً وراء الزرق، والمهاجر: الذي هاجر، والمهاجر: موضع المهاجرة، الهجرة، والمهجر: المكان يهاجر إليه أو منه؛ فالمهجر حسب المعجم الوسيط: المكان الذي يهاجر منه أو إليه، والخروج من أرض إلى أخرى قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوئنهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَة وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [3]

من خلال ما سبق نستطيع القول إن كلمة المهجر مشتقة من الهجرة أو المهاجرة بمعنى الخروج من أرض إلى أخرى، والمهجر معناه: مكان الهجر.

وأدب المهجر كما أسلفنا سابقًا هو أدب قديم لم تخل منه حقبة زمنية في أدبنا العربي، والهجرة التي وقعت في الفترات الأخيرة بدءا من هجرة الأدباء العرب من لبنانيين وسوريين إلى الأمريكيتين مروراً بمن لحقهم أواسط القرن الماضي وصولاً إلى الهجرات الأخيرة كلها جاءت بآثار عظيمة في حياة الأدب العربي لأن هجرتهم ليست بهجرة أنفسهم فحسب، وإنما هجرة ثقافتهم وآدابهم فالأدب بهجرته من أمة إلى أخرى يثبت حيويته ومرونته وصلاحيته للدوران في أقطار الفكر الإنساني، والأدب في هجرته من أمة إلى أمة يكتسب نغمة جديدة، أو لمسة مستحدثة، أو لوناً فريداً، أو العديد من ذلك طبقاً لما لدى الأمة الآخذة من قوة تستطيع بها إثراء الأدب الوافد.

---

(1) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية مطابع شركة الإعلانات الشرقية 1989 644-645

(2) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مكتبة دار الشروق الطبعة الرابعة2004 ص 973

(3) سورة النحل الآية 41

الرثاء

ورد في المعجم الوسيط [1] "رَثَى الميّتَ رَثَى ِ رَثْيًا، ورِثَاءً، ورثَايةً، ومَرْثَاةً، ومَرْثِيَةً: بكاه بعد مَوْتِهِ، ورَثَى عدَّد مَحَاسِنَهُ، ويقال: رثاه بقصيدة، ورثاه بكلمة، ورَثَى له: رحِمَه ورقَّ له.

منذ بدء الخليقة والإنسان يتهرب من الموت الذي لا بد منه ويتذكره كلما سمع بوفاة أحد وكلما فقد عزيزاً، وقليلون جداً من يجدون الصبر والصلابة أمام موت أحد الأقرباء أو الأعزاء على قلوبهم، ومهما كان الإنسان، غنياً أو فقيراً، أمياً أو مثقفاً، أسود أو أبيض، يتألم أمام الموت، ويفتقد لمن مات ويعدد مزاياه[2] حتى أن البعض إذا مات عدو لهم، تأسفوا عليه ووجدوا بعد فوات الأوان صفة على الأقل حسنة فيه كجرير عندما رثى الفرزدق بعد أن دام الهجاء بينهما سنينا طويلة.

ولكل أمة مراثيها ، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثى ، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة ، هي الندب والتأبين والعزاء.

"أما الندب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتفجع؛ إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح ، فيبكي بالدموع الغزار ،وينظم : الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته"[3].

وقد ينظر فيرى الموت مطلاً نصب عينيه ، وهو ينحدر راغماً إلى حفرته ، ولا ناصر له ولا معين ، ويصيح ولا ينفعه صياحه ، ففم" الهاوية يقترب منه ويوشك أن يلتقمه، فيبكي ويلحن بكاءه على قيثارة شعره تلحيناً مشجياً كله آلام وحسرات .

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضا من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم، فنجدهم يبكون بدموع غزيرة ويرثونهم بقصائد تتجدد مع ذكرى موتهم فكأنهم يخاطبون موتاهم ويحاورونهم من خلال مراثيهم فلا يريدون لقصائدهم أن تخبو نارها وينطفئ وقيدها.

وليس التأبين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص، إذ يخرُّ نجم لامع من سماء المجتمع، فيشيد يه الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه.

---

(1) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مكتبة دار الشروق ط4 ص329

(2) الرثاء في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت ص2

(3) الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ط4 ص5

ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها، ولذلك يسجل فضائله ويلحّ في هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها فى ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تنسى على مر الزمن.

"والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التى هو بصددها إلى التفكير فى حقيقة الموت والحياة، وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة، فإذا بنا نجوب معه فى فلسفة الوجود والعدم والخلود"[1]

ومن أشهر المراثي في الجاهلية رثاء الخنساء لأخيها صخر الذي بكت عليه كثيراً وأشتهرت بقصائدها في رثائه وتأبينه تقول:[1]

تَبكي لِصَخرٍ هِيَ العَبرى وَقَد وَلَهَت	وَدونَهُ مِن جَديدِ التُربِ أَستارُ
تَبكي خُناسٌ فَما تَنفَكُّ ما عَمَرَت	لَها عَلَيهِ رَنينٌ وَهيَ مِفتارُ
تَبكي خُناسٌ عَلى صَخرٍ وَحُقَّ لَها	إِذ رابَها الدَهرُ إِنَّ الدَهرَ ضَرّارُ

والحقيقة أن العصر الجاهلي كان من أغزر العصور قصائداً في رثاء الأشخاص في ظل غياب فكرة الأخرة والجنة والنار إضافة لعدم الاستقرار وكثرة الحروب بين القبائل بالإضافة لأسباب أخرى للموت كالطاعون وغيره؛ ولأبي ذؤيب الهذلي _ وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام _ قصيدة مؤلمة في رثاء أولاده فقد "هلك له خمسة بنين في عام واحد، أصابهم الطاعون. وفي رواية: وكان له سبعة بنين شربوا من لبن شربت منه حية ثم ماتت فيه، فهلكوا في يوم واحد يقول":[3]

أَمِنَ المَنونِ وَريبِها تَتَوَجَّعُ	وَالدَهرُ لَيسَ بِمُعتِبٍ مِن يَجزَعُ
قالَت أُمَيمَةُ ما لِجِسمِكَ شاحِباً	مُنذُ ابتَذَلتَ وَمِثلُ مالِكَ يَنفَعُ
أَم ما لِجَنبِكَ لا يُلائِمُ مَضجَعاً	إِلّا أَقَضَّ عَلَيكَ ذاكَ المَضجَعُ
فَأَجَبتُها أَن ما لِجِسمِيَ أَنَّهُ	أَودى بَنِيَّ مِنَ البِلادِ وَوَدَّعوا

---

(1) الرثاء، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة ط4 ص5

(2) ديوان الخنساء،شرح حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط2 ص 45

(3) ديوان الهذليين، تعليق محمّد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ،ط1، ج1 ص1-3

عندما جاء الإسلام تغيّرت النظرة العامة للموت ومع دخول العرب في الإسلام وإيمانهم بالجنة والنار والعقاب والثواب أخذ الرثاء يتجه نحو التأبين، ويتحول من دائرة الفرد وأسرته إلى دائرة الجماعة، بل أكثر من ذلك فقد انتقل إلى دائرة الأمة كلها أبّنَ الشعراء الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، ونجد ذلك جلياً في شعر حسان بن ثابت في قصيدته برثاء خير الخلق وأعزهم سيدنا ونبينا محمد ﷺ يقول: [(1)]

بطيبة َرسمٌ للرسولِ ومعهدُ	منيرٌ، وقد تعفو الرسومُ وتهمدُ
ولا تنمحي الآياتُ من دارِ حرمةٍ	بها مِنْبَرُ الهادي الذي كانَ يَصْعَدُ
ووَاضِحُ آياتٍ، وَبَاقي مَعَالِمٍ	وربعٌ لهُ فيهِ مصلى ًومسجدُ
بها حجراتٌ كانَ ينزلُ وسطها	مِنَ الله نورٌ يُسْتَضَاءُ، وَيُوقَدُ

ومع مرور العصور اختلطت قصائد الرثاء بالفلسفة وبالحكم والتأملات والزهد ، لتصبح دروساً أخلاقية تذكر الإنسان بالقدر المحتوم وتدعوه للعمل الصالح قبل أن يضمه التراب؛ وبما أن الموت واحد والانفعال أمامه واحد، فإن قصائد الرثاء جاءت متشابهة في كل العصور الأدبية باستثناء دخول الفلسفة عليها في العصور المتأخرة وظهور نوع من الرثاء السياسي والمذهبي في العصر الأموي والعباسي عندما انطلق شعراء كل فريق من الفرق يبكون قتلاهم أثناء المعارك والفتن ويهجون أعداءهم. كما ظهر في الأندلس نوع جديد من الرثاء هو رثاء الممالك الزائلة الذي فاق فيه الأندلسيون شعراء المشرق ولعل من أشهر هذه القصائد نونية أبو البقاء الرندي التي رثى فيها الأندلس بعد سقوطها بيد الأسبان يقول فيها: [(2)]

لِكُلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمّ نُقصانُ	فَلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيشِ إِنسانُ
هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدتُها دُوَلٌ	مَن سَرّهُ زَمَن ساءَتهُ أَزمانُ
فِاسأل بَلَنسِيةً ما شَأنُ مرسِيَةٍ	وَأَينَ شاطِبة أَم أَينَ جيّانُ

أما في العصر الحديث، فقد رثى الشعراء الإنسانية بشكل عام ورثوا أنفسهم وأحبتهم بشكل خاص وغاصوا في وجدانياتهم وتأملاتهم،رثوا العروبة ورثوا الأخلاق بالإضافة إلى رثاء أوطانهم ومدنهم على ختلافها وامتدادها، ويعد أدب الرثاء بحر واسع يفيض بدرره على الباحثين وستقتصر في هذا البحث على الرثاء في أدب المهجر السوري.

---

(1) ديوان حسان بن ثابت، شرح عبدأ مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2 ص 60-61

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج4 ص،486-487

الباب الثاني: مواضيع الرثاء في أدب المهجر السوري

تنوعت مواضيع الرثاء في أدب المهجر السوري بتنوع أشكال الألم والحزن الذي عانى منه السوريين، فمنهم من فقد كل شيء ومنهم من فقد جزءً من عائلته ومنهم من فقد أحد أفرادها والبعض فقد أحد أصدقاءه أو أقرباءه، فلا تكاد تخلو عائلة سورية من ألم وحزن بسبب الحرب وزاد من هذا الألم اضطرارهم لترك بلادهم التي أحبوها والهجرة نحو بلاد سيعيشون فيها غرباء ولاجئين مشتتين وهذا ما أشعل قريحة الشعراء من المهاجرين فبكوا واستبكوا الأهل والصاحب والولد والوطن، وقد وقع اختيارنا على بعض القصائد الصالحة للدراسة من ناحية الطول والجودة والموضوع، وأثناء البحث اطلعنا قصائد رثاء جميلة لشعراء آخرين كتبوا في هذا المجال نذكر منهم الشاعر محمد البياسي والشاعر فاضل سفان والشاعر مصطفى سعدو والشاعر مجيد فريح والشاعر مناف بعّاج والشاعر عمر هزاع والشاعرة لميس الرحبي والشاعرة صفية دغيم والشاعر إبراهيم جعفر وغيرهم الكثير ممن جادت قريحتهم وزخّت أقلامهم وعبروا عن مشاعرهم بحروف جميلة وما زالوا يضيفون نتاجهم الأدبي ليغنوا به أدب المهجر، وفي هذا البحث اعتمدنا على محاور أساسية في نطاق محدد ومضبوط فبدأنا الدراسة برثاء الأب، فالأم، فالولد، فالأخ، فالوطن، فالرموز، وختمنا هذا الباب برثاء الصديق.



رثاء الأب

للشاعر ياسر الأقرع

ياسر الأقرع: شاعر من مواليد حيّ (دير بعلبة) في محافظة حمص السورية 5 – 3 – 1972م

يحمل إجازة في اللغة العربية - عام 1998م ودبلوم دراسات عليا - عام 1999م بالإضافة لماجستير بدرجة امتياز - عام 2003م بعنوان (الحبّ عند شعراء الشام في العصر الأموي)، وأصدر حتى الآن ستة دواوين شعرية، هي:

1 – غداً تمحوكَ ذاكرتي (1998م)

2 – عيناكِ كلّ لغات العشق (1999م)

3 – الشعر بين قنديلين.. وجهك والقمر (2001م)

4 – أنتِ.. ويبتدئ العمر (2003م)

5 – لا.. أحبك (2005م)

6 – إذا قيلَ.. أنتِ (2018م)

أصدر كتابين في الدراسات النقدية هما: (الحب عند شعراء الشام في العصر الأموي- 2008م - أحسن القصص (رؤية بيانية جديدة في قصة يوسف(ع)- 2008م)

اضطر لمغادرة وطنه أوائل عام 2014م، واستقر في العاصمة الأردنية (عمّان).. واستقطب الأنظار بنشاطه الأدبي والشعري، فتوالت أمسياته الشعرية ولقاءاته الإذاعية والتلفزيونية.

تم اختياره واحداً من أفضل 100 شاعر معاصر في بلاد الشام، في كتاب (نخبة الشعراء العرب) الذي طبع في القاهرة عام 2017م؛ وتم اختياره أيضاً في نخبة شعراء سورية، ضمن سلسلة الشعراء الألف في الوطن العربي/ الصادرة عن دار النخبة في مصر عام 2018م. ونال الكثير من الجوائز وشهادات التكريم خلال مسيرته الأدبية.


للاستماع للقصيدة امسح الرمز

الشاعر والقصيدة: أراد الشاعر أن تكون مرثيته في أبيه جزء من وفائه له، وتعبيراً عن مشاعر الألم والحزن والفقد الذي لازمه بعد موته؛ لكي تظهر مرثيته معبّرة عن مشاعر الحزن للفراق والشوق للماضي الجميل، والألم، والغربة في آن واحد فكانت قصيدة بعنوان " ومات أبي".

" ومات أبي "[1]

ومات أبي...

مضى بالأمسِ مسكوناً بحسرتهِ

ومطعوناً بغربتهِ

ومنفياً... بلا سببِ

ومنسيّاً بأرضِ اللهِ

ضمَّت كفُّه تيهاً.. وأوجاعاً

وأحزاناً لمغتربِ

* * *

ومات أبي...

نعم.. بالأمسِ ماتَ أبي

وخلّى ذكرياتِ العمرِ

ملءَ الروحِ

كاللهبِ

وخلّى لي مواجعَهُ.. وأدمعَهُ

وشَالَ طفولتي معَهُ

وألقاني بلا قصدٍ

إلى اللاشيءَ يرحل بي

مضى وكأنه حلمٌ نقيٌّ في المدى أبحر

(1) موقع الدستور https://www.addustour.com/articles/1236347

ولم يشكُ انكسارَ القلب في المنفى

ولم يضجر

ولم يرمِ الليالي السودَ بالعتبِ

مضى لَبِقاً كعادته

بلا صوتٍ.. ولا صَخَبِ

* * *

وماتَ أبي...

نعم.. بالأمسِ ماتَ أبي

وغابت في ملامحه حكاياتٌ

ترود شواطئ التعبِ

وكنا حين نسمعها عصافيراً

تنقِّر من مواجعهِ

وتشرب من مدامعهِ

وتسكن حين يغفو الليلُ..

في الأحلامِ والهُدُبِ

فأين أبي.. يعيد لنا حكايته...!؟

يكرّرها

ونعشقها

وتدعونا إلى العَجَبِ

فما زلنا بغيبتهِ

عصافيرًا تفتش عن حكايتهِ

لتبنيَ مِنْ تصوُّرِها

لها بيتاً على السُّحبِ

* * *

وماتَ أبي...

إذاً.. بالأمسِ ماتَ أبي

ومدَّ الموتُ أشرعةً لريحِ الحزنِ تعصف بي

وأمسِ رأيته في الحُلمِ

إذ أغفيتُ من تعبي

تهادت من جروح الروح لهفته

وضمتني ابتسامته

وقالت: يا شقيَّ الوهمِ.. لا تحزن

فإنَّ أباك لم يَغِبِ

1- البنية الفكرية

المقطع الأول: استحضار الألم

يبدأ الشاعر قصيدته بقوله: "ومات أبي" وكأنه يعطف ألمه الأكبر على آلام أخرى سبقته، ولكن وقعها لا يكاد يذكر أمام هذا الفقد والألم، ويكمل الشاعر على نفس السياق معبراً عن ألمه العميق بفقد أبيه الذي لم يمض على فراقه إلا يوم، ومما أثار ألم الشاعر بشكل أكبر حال أبيه عند الموت فالحسرة تسكنه كأنه منها و كأنها جزء منه، وما يلبث القارئ أن يتم البيت حتى يرى الصورة الموجعة لذلك الأب في موته فقد مات مطعونا بغربته الإجبارية إذا نفي من أرضه ووطنه دون جرم أو سبب، وما يزال الشاعر يفاقم من تصويره للألم في مقدمة قصيدته ليعبر لنا عن مدى صعوبة موت والده في غربته بعيداً عن أهله وأرضه ومنسيا في أرض الله كما وصف الشاعر، ويختم تلك المقدمة المؤلمة بأن أباه رحل يضم بكفه ذلك الضياع والحزن والأوجاع التي أثقلته غربته بها.

المقطع الثاني: العودة للطفولة

يبدأ الشاعر المقطع الثاني وكأنه في حال من الصدمة وعدم تصديق الأمر لأن الفاجعة أثخنته فقد ترك موت أبيه له ذكرى مؤلمة سترافقه طول عمره بحسرتها التي تلهب صدره، فقد ترك له أحزانه أيضا كأنها إرث يورث له، ذهب يحمل ذكرى طفولته بين يديه وتركنه يواجه المجهول وحده دون أن يعلم، وفي هذا المقطع يبدأ الشاعر بذكر أوصاف أبيه فهو رجل لا يشتكي ولا يتململ وهو شخص راض مؤمن بالقدر فلا

يحمل الدهر وزراً من مصائبه، وفي نهاية المقطع يذكر إحدى مزايا أبيه وخصاله فهو لبق رزين ما زال على ذلك الطبع حتى خرج من هذه الدنيا.

ومات أبي...

ومات أبي..

مضى بالأمس مسكوناً بحسرتهِ

ومطعوناً بغربتهِ

ومنفياً... بلا سببِ

ومنسيَّاً بأرض اللهِ..

ضمَّت كفُّه تيهاً.. وأوجاعاً

وأحزاناً لمغتربِ

المقطع الثالث: الماضي الجميل

الشاعر في المقطع الثالث أيقن بموت أبيه واستسلم للأمر الواقع فنراه يقول مؤكداً " نعم بالأمس مات أبي" وبدأ بعدها يستذكر الذكريات التي تركها أباه ويقول أنها حكايات يحكيها والده وليست مجرد ذكريات ولكنها مليئة بالتعب ذلك التعب الذي بذله والده عليه وعلى أخوته حينما كانوا صغاراً كعصافير صغيرة جائعة تأكل من تعب أبيها، وتشرب من دموعه وتنام في عينيه، وقد ذكر الشاعر هذه الأشياء ليشعرنا بتعب الأباء على أولادهم ورعايتهم لهم، وها هو الآن يفتقد أباه ويتمنى أن يعود ويحكي لهم تلك الحكايات القديمة التي كانوا يبنون منها خيالاً واسعاً وحلماً كبيراً يعانق السماء.

ومات أبي...

نعم بالأمس مات أبي

وغابت في ملامحه حكاياتٌ

ترود شواطئ التعبِ

وكنا حين نسمعها عصافيراً

تنقّر من مواجعهِ

وتشرب من مدامعهِ

وتسكن حين يغفو الليلُ.. في الأحلامِ والهُدُبِ

فأين أبي.. يعيد لنا حكايته...!؟

يكرّرها ونعشقها وتدعونا إلى العَجَبِ

فما زلنا بغيبتهِ عصافيرًا

تفتش عن حكايتهِ

لتبنيَ مِنْ تصوُّرِها

لها بيتاً على السُّحبِ

المقطع الرابع: الصراع بين الحقيقة والخيال

وفي خاتمة القصيدة يتملك الشاعر إحساسه بالواقع المرير، ويؤكد على استيعابه وإدراكه لموت أبيه مستخدما الأداة "إذاً"؛ هذا الموت الذي أحزن الشاعر كثيرا وأتعبه فراقه، ولكن الشاعر يستدرك ذلك ويهرب إلى عالم الأحلام الذي لا يشبه عالمنا وهناك يحقق الشاعر رغبته من خلال صورة أبيه مبستماً رغم الألم المحيط به، وإذ بهذه الابتسامة تضم الشاعر وتخبره بألا يحزن ولا يشقيه الوهم فإن أباه لم يغب أبداً.

وفي هذه النهاية نرى صراعاً داخلياً يسيطر على الشاعر فكل شيء يدل على موت أبيه إلا أن جوارحه ترفض الاعتراف أو الهزيمة للواقع المحتوم.

ومات أبي...

إذا بالأمس مات أبي

ومدَّ الموت أشرعة لريح الحزن تعصف بي

وأمسِ رأيته في الحُلمِ إذ أغفيتُ من تعبي

تهادت من جروح الروح بسمتُه

وضمَّتني ابتسامته..

وقالت يا شقيَّ الوهم.. لا تحزن

فإنَّ أباك لم يغبِ

2 - البنية الفنية

العنوان:

"ومات أبي" يحمل العنوان حزناً كبيراً وكأننا أمام طفل صغير يفتقد أباه هذا هو حال الشاعر الذي تجاوز الخمسين من عمره، ولكن جزء من طفولته ما يزال مفقوداً بين سطور هذه القصيدة، وتحت هذا العنوان الذي استهل به الشاعر كل مقطع من قصيدته ليقول لنا " أنا ما زلت طفلاً في غيابه".

الألفاظ:

جاءت الألفاظ في النص سهلة وبسيطة، حرص الشاعر أن تكون مفرداته من الحياة اليومية لتصل رسالته إلى الجميع فابتعد عن الكلمات الغريبة والصعبة؛ كان الحزن في النص مبطناً ومخفياً بين الصور أحيانا وظاهرا أحيانا أخرى فنجد مفردات تدل على الحزن مثل (جروح – الحزن – مواجع – مدامع) بالإضافة للجملة التي كررها الشاعر في بداية كل مقاطعه (ومات أبي).

التراكيب:

كانت التراكيب معبرة ذات دلالة عميقة تعبر عن ثقافة الشاعر الواسعة، ونزعته الإنسانية الطاغية في القصيدة تنوعت عبارته بين المتوسطة والطويلة، وزاوج بين الجمل الاسمية والفعلية في قصيدته.

فأين أبي.. يعيد لنا حكايته...!؟

مدَّ الموت أشرعة لريح الحزن تعصف بي

التكوين الجمالي للقصيدة:

نظم الشاعر قصيدته على تفعيلة البحر الوافر (مفاعلتن) أما حرف الروي فهو الباء المكسورة، واستطاع الشاعر أن يمنح قصيدته إيقاعاً خاصاً بتكراره عنوان القصيدة بداية كل مقطع.

يخيم على القصيدة جو الحزن فالعاطفة هنا جياشة صادقة شفافة بعيدة عن التكلف والمبالغة، نوّع الشاعر في أسلوبه بين الخبري والإنشائي إلا أنّ الأسلوب الخبري سيطر على القصيدة بشكل كبير فنراه يفتتح مقاطع قصيدته بأسلوب خبري ابتدائي بجملة "ومات أبي"، ويكمل المقطع الأول باستخدام الأسلوب ذاته ثم يفسح المجال لسيل العواطف الجياشة والذكريات لتمر من خلال سطور قصيدته مستعيناً ببعض الاستعارت كقوله "مطعونا بغربته" إذ شبه الغربة بالسيف الذي يطعن وفي هذه الاستعارة يوضح الشاعر مدى قساوة الغربة وألمها.

ويكمل الشاعر رحلته في وصف آلام الغربة من خلال رثاء أبيه فينتقل من الإخبار إلى الاستعارة، فالتجسيم ليختم المقطع الأول بصورتين هما:

ضمَّت كفُّه تيهاً.. وأوجاعاً

وأحزاناً لمغتربِ

اعتمد التجسيم فيهما ليعبرعن أقصى درجات الضياع والحزن، فقد جسم الضياع والأوجاع ثم يعطف عليهما الحزن لتصبح كشيء في متناول يد أبيه وهو مسجى في غربته على نعشه.

ينتقل الشاعر إلى المقطع الثاني مطوراً أسلوبه وصوره ليخدم غرضه في استدعاء الصور واللقطات من طفولته البعيدة مصوراً لنا موت أبيه من منظور آخر، وهو منظور طفولي فبدأ المقطع الثاني بأسلوب خبري ابتدائي انتقل منه إلى تشبيه يخدم منظوره الجديد فذكريات العمر كلها كنار تلتهب وتحرق روحه.

وينتقل من التشبيه إلى الاستعارة ليصور وحدته وضياعه فقد ذهب والده ولم يورثه سوى المواجع والدموع، ويتابع الشاعر في هذا النهج من التصوير ليكمل مشهد الضياع فبعد أن أورثه أبوه الدموع والألم سلبه طفولته (شال طفولتي معه).

يكمل الشاعر تصوير ضياعه ووحدته، ولكن هذه المرة من منظور فلسفي فنراه يتهم أباه ويبرأه في ذات الوقت فهو الذي ألقاه إلى المجهول (اللاشيء)، ولكنه برأه بجملة اعتراضية ضمنها بيته (بلا قصد) ليكمل دربه وفق ما رسمه له هذا (اللاشيء).

وألقاني بلا قصدٍ

إلى اللاشيءَ يرحل بي

يعود الشاعر بعد هذا الضياع إلى مشهد موت أبيه وإلى ما تبقى في ذاكرته من تلك الصور لأبيه قبل موته ليسرد لنا بعض صفاته بعد أن شبه رحيل أبيه بحلم نقي يبحر بعيداً عن إدراكه وإحساسه في تشبيه تام الأركان (مضى وكأنه حلمٌ نقيٌّ في المدى أبحر)

ينتقل بعدها إلى صورة أخرى ليصف صبر والده فرغم المآسي والأوجاع التي عايشها في الغربة وكانت سبباً في انكسار قلبه وسبباً في ألم داخلي ينهش روحه إلا أنه بقي صابراً ولم يضجر.

يتابع الشاعر في مشهد تقديس أبيه وإظهاره بمظهر الرجل المتزن الصبور الذي لا يشكو، أو حتى يعتب رغم مصائب الدهر المتتالية عليه فبعد الحرب ومرارة الغربة وقسوتها مازال هذا الرجل العظيم يحافظ على رباطة جأشه ورصانته، ويترفع عمّا يقوم به الكثير من الناس من تحميل (سود الليالي) ذنب ما يحصل لهم من مشاكل أو مصائب، رغم ما مر في حياته من آلام وأحزان من خلال استخدام الشاعر لاستعارة شبه بها الليالي بالإنسان الذي يعاتب (ولم يرمِ الليالي السودَ بالعتبِ).

وفي نهاية المقطع يتمم الشاعر مشهده عن خصال أبيه الحميدة والطيبة بوصفه باللباقة التي هي عادة أصيلة فيه هذه اللباقة التي يرافقها الهدوء والرزانة بعيدا عن الصخب والضجيج والمبالغة (مضى لَبِقاً كعادته بلا صوتٍ.. ولا صَخَبِ)

وفي هذا البيت نلمس كناية أراد منها الشاعر تصوير رحيل والده الهادئ، والمفاجئ وهذا قد يفسر لنا حالة عدم التصديق والضياع التي أربكت الشاعر في أجزاء من قصيدته.

نوّع الشاعر في هذا المقطع بين الأسلوب الخبري والإنشائي إلا أنه استخدم الأسلوب الإنشائي أكثر فقد استخدم صيغة النفي في أكثر من جملة في هذا المقطع ليؤكد بذلك نفيه الكثير من الصفات السلبية عن والده.

ولم يشكُ انكسارَ القلب في المنفى

ولم يضجر

ولم يرمِ الليالي السودَ بالعتبِ

يبدأ الشاعر المقطع الثالث بيقينه بموت أبيه بعد أن كان ضائعاً متردداً بين التصديق والتكذيب ويؤكد على ذلك بقوله (نعم بالأمس مات أبي) ويفتح بيقينه هذا باب الذكريات على مصراعيه ليعود بنا إلى طفولته في كنف أبيه فيتذكر حكايات أبيه التي غابت مع غيابه، وهنا نجد الشاعر يذهب إلى الخيال لتصوير هذه الفكرة وتجسيدها أمام القارئ فاستخدم الاستعارة ليجعل هذه الحكايات ترتاد شواطئاً من تعب فاستطاع بهذا أن يمزج بين صورتين في لوحة واحدة.

(وغابت في ملامحه حكاياتٌ ترود شواطئ التعبِ)

لقد استخدم الشاعر حكايات أبيه كشجرة لأخيلية وصور كثيرة تتفرع منها فهي النقطة الأساسية والمرتكز الأول لهذا الصور فنراه يتحول من الصورة الثنائية التي تقاسمها مع أبيه إلى صورة أوسع فانتقل من ضمير الغائب المفرد إلى ضمير المتكلم الجمع ليبدأ تصوير مشهد يضم إخوته (كنا حين نسمعها).

يحاول الشاعر من خلال هذا التحول نقل مشهد لأيام طفولته، فاستخدم التشبيه لأداء هذا الغرض فقد شبه نفسه وإخوته بالعصافير التي كانت ومازالت رمزاً للبراءة والطفولة

(وكنا حين نسمعها عصافيراً)

فالشاعر أراد من هذا التشبيه وهذه الصورة ــإلى جانب ماسبقــ خلق الحركة في هذا المشهد من خلال صور متتالية لهذه العصافير التي تقتات من تعب هذا الأب المضحي، وتشرب من دموعه التي يذرفها خوفاً عليهم وحباً بهم ليختم هذا المشهد المتحرك باستعارة جميلة وصورة فريدة فهذه العصافير التي تتعب ذاك الأب في النهار تعود ليلاً لتغفو في عيونه وتنام في رعايته.

وكنا حين نسمعها عصافيراً

تنقّر من مواجعهِ

وتشرب من مدامعهِ

وتسكن.. حين يأتي الليل.. بين الهدب والهدبِ

يتنهد الشاعر بعدها ويتذكر أباه مستخدماً أسلوباً إنشائياً نوعه استفهام ليسأل (فأين أبي.. يعيد لنا حكايته...!؟

فمازال الشاعر يرغب باستماع تلك الحكايات مع إخوته من أبيه الذي يعيد لهم حكاياته كما أكد على ذلك الشاعر مرتين (يعيد لنا حكايته، يكررها ويدهشنا)، وفي هذا تلميح للحس الطفولي الأصيل حين يستمتع الأطفال بحكايات والدهم، ويرغبوا بسماعها مراراً وتكراراً ليضحكوا ويدهشوا في كل مرة، فشاعرنا يرغب بأن يعود لتلك الأيام بين إخوته يستمع لحكايات أبيه ليعيش ذلك الشعور ويستمتع به مرة أخرى.

في ختام هذا المقطع يعود الشاعر لصورة ينهي بها مشهد الحكايات فيعود ليؤكد صورة استخدمها في ذات المقطع حين شبه نفسه وإخوته بالعصافير، ولكن هذا المرة وسع من تلك الصورة لتشمل كل الطيور في استعارة مكنية شبه بها نفسه وإخوته بالطيور التي تلقط الحروف العذبة من حكايات والده (فنحن طيوره.. التقطت حروف حديثه العذبِ).

وقد نجح الشاعر باستخدامه لهذه الصورة المركبة للدلالة على جمال حديث والده، وروعة حكاياته التي كانت محرك الخيال لديهم فيبنون من تلك التصورات والشخصيات عناصر قصصهم التي تحلق بخيالهم إلى ما بعد السحب.

يبدأ الشاعر مقطعه الأخير بالتسليم الكامل لموت أبيه ليصف لنا بعدها عناصر مشهده الأخير فيذكر كلمة موت ثلاث مرات في ثلاث سطور مؤكداً على إيمانه بالأمر الواقع ومستهلاً لصورته الأولى في هذا المشهد من خلال استخدامه الاستعارة فقد شبه الموت بإنسان الذي يمد أشرعة.

ومات أبي...

إذن بالأمس مات أبي

ومدَّ الموت أشرعة لريح الحزن تعصف بي

يكمل الشاعر لوحته النهائية باستخدام الاستعارة والتجسيم في آن واحد فقد جعل الريح كالإنسان الذي له القدرة على التصرف والتحكم بما حوله فقد جعل هذه الرياح (ريح الحزن) تحمله وتلقيه على بوابة (التعب).

يكرر شاعرنا استخدامه لكلمة التعب ليعبر لنا ما وصلت إليه حالته بفراق أبيه فبعد أن استخدمها كمصدر عاد ليستخدمها كفعل منسوب إليه (وحين تعبتُ من وجعي بفرقته) إلا أنه بعد كل هذا التعب والحزن ما زال يتمسك بخيط من أمل يتسلسل يلمع بين جبال الهموم والأحزان، وينقل لنا الشاعر هذا المشهد من خلال استعارة وتجسيم لبسمة أبيه التي تداعت من بين أحزانه وجروحه لتضمه بلهفة وتحدثه ألا يحزن ويستسلم لسيل همومه وأوهامه فما زال والده حاضراً ولم يغب.

تداعت من جروح الروح بسمتُه

وضمَّتني بلهفتها..

وقالت يا شقيَّ الروح.. لا تحزن

فإنَّ أباك لم يغبِ

هكذا ختم الشاعر قصيدته التي أبّن فيها أباه فبعد سيل الأحزان والذكريات الجميلة وحالة عدم التصديق والإنكار التي عاشها الشاعر مرورا بذكريات الطفولة، وصور أبيه وأخوته الذين اجتمعوا ليسمعوا الحكايات الجميلة التي اعتاد والدهم قصها عليهم لينتقل أخيراً لوصف مقدار تعبه وألمه بفراق أبيه ثم يختم ببارقة أمل تسللت من خلال ابتسامة أبيه التي أخبرت بأن والده ما زال موجوداً بينهم بذكراه رغم غيابه جسداً وفيما يلي جدول يمثل استخدامه لهذه الأساليب مع مواضعها.

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
مطعوناً بغربتهِ	استعارة مكنية	المقطع الأول
ضمَّت كفُّه تيهاً.. وأوجاعاً وأحزاناً لمغتربِ	كل ما سبق تجسيم	المقطع الأول
وخلّى ذكرياتِ العمرِ كاللهبِ	تشبيه مجمل	المقطع الثاني
وألقاني بلا قصدٍ إلى اللاشيءَ يرحل بي	كناية عن الغموض	المقطع الثاني
لم يرمِ ليالي العمر بالعتبِ	استعارة مكنية	المقطع الثاني

حكاياتٌ ترود شواطئ التعبِ	استعارة مكنية	المقطع الثالث
وكنا حين نسمعها عصافيراً	تشبيه بليغ	المقطع الثالث
تنقّر من مواجعهِ	استعارة مكنية	المقطع الثالث
وتشرب من مدامعهِ	استعارة مكنية	المقطع الثالث
وتسكن بين الهدب والهدبِ	استعارة مكنية	المقطع الثالث
فنحن طيوره التقطت حروف حديثه العذبِ	تشبيه تمثيلي	المقطع الثالث
ومدَّ الموت أشرعة	استعارة مكنية	المقطع الرابع
تلقيني على بوابة التعبِ	استعارة مكنية	المقطع الرابع
تداعت من جروح الروح بسمتُه	استعارة مكنية	
وضمَّتني بلهفتها	استعارة مكنية	المقطع الرابع
قالت يا شقيَّ الروح	استعارة مكنية	المقطع الرابع

المحسنات البديعية	نوعها	موقعها
أبي – تعصف بي	تصريع	البيت الأول

الأسلوب	نوعه	موقعه
ومات أبي	أسلوب خبري ابتدائي	المقطع الأول
ولم يشكُ انكسارَ القلب	إنشاء طلبي نوعه نفي	المقطع الثاني
ولم يضجر	إنشاء طلبي نوعه نفي	المقطع الثاني
ولم يرمِ الليالي السودَ بالعتبِ	إنشاء طلبي نوعه نفي	المقطع الثاني
وغابت في ملامحه حكاياتٌ	أسلوب خبري ابتدائي	المقطع الثالث

ترود شواطئ التعبِ	أسلوب خبري ابتدائي	المقطع الثالث
لتبني من تصوّرها.. لها بيتاً على السحبِ	أسلوب خبري ابتدائي	المقطع الثالث
يا شقيَّ الروح	أسلوب إنشائي نوعه نداء	المقطع الرابع
لا تحزن	أسلوب إنشائي نوعه نهي	المقطع الرابع
لم يغبِ	أسلوب إنشائي طلبي نوعه نفي	المقطع الرابع





رثاء الأم

الشاعر حسين العبد الله

الشاعر حسين سليمان العبد الله سوري من مواليد دير الزور 7 نيسان 1968، متزوج وله خمسة أولاد يقيم حالياً في تركيا بمدينة إسطنبول.

متخصص في مجال هندسة وتكنولوجيا تآكل المعادن والمعالجة الكيميائية في حقول النفط، عمله في هذا المجال كان سبباً في كثرة تنقلاته وسفره بين الشرق والغرب، فهو يعمل حالياً كرئيس قسم المعالجة الكيميائية في شركة صينية في العراق بعد أن كان مدير عام شركة CDT لأنظمة الطاقة في تركيا .

بالإضافة لأعمال سابقة في نفس المجال في اليمن وليبيا والإمارات العربية المتحدة وفرنسا التي سندرس تأثيرها في قصيدته هذه على وجه الخصوص ولا ننس وطنه الأم سوريا حيث عمل كرئيس فريق التفتيش الفني والتآكل مع شركة ديرالزور للنفط.

في مجال الشعر والأدب:

- حصل على عدة ألقاب ودروع منها درع ولقب شخصية رابطة شعراء العرب لعام 2017، و قلادة الإبداع من اتحاد الكتاب الشعبيين العرب في العراق، وساهم في مجال الشعر والأدب فهو عضو مؤسس في الجمعية الدولية للشعراء العرب ورئيسها الأسبق، وعضو الهيئة التأسيسية ونائب مدير مهرجان الشعر العربي في إسطنبول 2018، ورئيس اللجنة التنظيمية العليا لمهرجان الشعر العربي - إسطنبول 2019

ترجمت وزارة التربية التركية إحدى قصائده إلى التركية وفازت بها طالبة تركية بالمركز الأول في المسابقة الدولية العاشرة للغة العربية في تركيا.

له العديد من اللقاءات التلفزيونية والإذاعية على قنوات عربية وتركية، وشارك بالعديد من المهرجانات الدولية وأُدرجت عدة قصائد له في إصدارات شعرية مشتركة في أكثر من دولة.


للاستماع للقصيدة قم بمسح الرمز

الشاعر والقصيدة: تعد القصيدة جواز سفر الشاعر نحو ماضيه الذي سافر إلى أقصاه ليستحضر وجه أمه ورائحتها وابتسامتها، فعاد إلى طفولته ليصف حنانها وحبها مروراً على كل اللحظات الجميلة التي كانت مخزّنة بذاكرته ليصف مجلسها وجليساتها، وحتى عملها في المنزل وإعدادها للخبز الذي تجود به لجيرانها فتفيض كرماً وعزة، ليصل في نهاية المطاف إلى مشهد تشييعها، ثم دفنها فيصف ويختم قصيدته بوصف طريق عودته من المقبرة التي دفنت فيها أمه وأمله بلقائها.

"سفير من قلب أمي"[1]

أحبو

وتسبقني الدروبُ تسيرُ

ومضى من العمرِ القصيرِ كثيرُ

ما كنتُ مَن فوق الدروبِ يسيرُ

لكني الذي فوقي الدروبُ تسيرُ

وعَلامَ أُسرعُ والطريقُ معبدٌ بالموتِ والرصفانُ فيهِ قبورُ؟!

أين المسيرُ

وكلُّ أحلامي التي شَيدتُها ... خلفي

فأين أسيرُ؟!

نحو الحبيبةِ؟!

(1) موقع العربي اليوم https://elarabielyoum.com/show465664

أيُّهنَّ؟!

فإنني – في ظَنهنَّ – بكلِّهنَّ أسيرُ

نحو السرابِ؟!

إذن سأحبو

فالسرابُ إذا بلغتُ رحابَهُ سيغورُ

نحو المدينةِ حيثُ أُمي؟!

لا تُذكِّرني

فقد يغتالني التذكيرُ

أمي!

تعالَ بذكرِها ننسَ الهمومَ

فذكرُ أمي – يا سميرُ – سميرُ

للشمس ِكرسيٌّ هناك ببيتِنا

فرفاقُ أمي الشمسُ والتنورُ

وحصيرُها في الحَيِّ كان حَرَملكًا

وتغارُ من ذاكَ الحصيرِ قصورُ

وبكفِّها مسكٌ

وسَلْ حبلَ الغسيلِ

فلم يزلْ يبكي

وفيه عبيرُ

وبَخورُها من دَخنةِ التنورِ

يا باريسُ..

هل مِن مثلِ ذاكَ عطورُ؟!

ووَضوءُ أمي حفنتانِ من الفراتِ

لذاكَ يسكنُ وجهَ أمي النورُ

وإذا حكت

فكأنما نطقَ الفراتُ

فصوتُها عذبٌ ... وفيه خَريرُ

وبعينِها حَوَرٌ وألفُ قصيدةٍ

ما الـ (مونَلِيزا) حين تُذكرُ حُورُ؟!

أحتاجُ بحرًا يا خليلُ لأجلها

لم تُوفِ أمي يا خليلُ بحورُ

فأراه ينقصُ كاملٌ في وصفِها

وبوصفِها إن الطويلَ قصيرُ

أمي التي للجارِ نِصفُ رغيفِها

والضيفُ يأكلُ نِصفَهُ وطيورُ

سلطانةً كانت لأعظمِ دولةٍ

فيها تساوى حاجبٌ ووزيرُ

في قلبِ أمي دولةُ الحُبِّ التي

منها أنا للعالمينَ ســــفيرُ

شَيَّعتُها

والشمسُ خلفَ غمامةٍ تبكي

وشيَّعها معي العُصفورُ

والبابُ أمسكَ نعشَها: لا ترحلوا

رُدُّوا (الحنونةً)

ثم ناحَ الدُّورُ

وعلامَ يا حفَّارُ تحفرُ قبرَها؟!

أمي لها كل الصدورِ قبورُ

وحثوتُ..

لم أحثُ الترابَ وإنما

روحي حثوتُ

وفي الضلوعِ زئيرُ

ورجعتُ

والدربُ الذي سِرنا به

نبتَت عليه قصيدةٌ وسطورُ

حتَّامَ أبقى يا دروبِ مهاجرًا

ومتى لأمي يا دروبُ أحورُ ؟!

1- البنية الفكرية

المقطع الأول: العودة للطفولة – خط الحياة

يبدأ الشاعر مرثية أمه بالفعل "أحبو" وكأنه يعود إلى الماضي البعيد حيث كان طفلاً بين ذراعيها تتركه فيحبو أينما شاء، ويستفيد من هذا الفعل أيضاً في إيضاح بطئه والعمر يمضي أمامه سيراً، حتى ذهب جُلَّ عمره وهو على هذه الحال، ويستمر في تصوير مواجعه وثقل همه بأنه كان مسحوقاً جداً بفقده لأمه وكأنه من ثقل همه يسير تحت الطرقات لا فوقها، ثم يعود ويسأل نفسه لما الاستعجال في هذا الطريق الذي تؤدي كل مخارجه إلى الموت!؟

أحبو وتسبقني الدروبُ تسيرُ

ومضى من العمرِ القصيرِ كثيرُ

ما كنتُ مَن فوق الدروبِ يسيرُ

لكني الذي فوقي الدروبُ تسيرُ

وعَلامَ أُسرعُ والطريقُ معبدٌ

بالموتِ والرصفانُ فيهِ قبورُ؟!

المقطع الثاني: **ضياع مؤقت**

يبدو الشاعر هنا في حالة من الضياع المؤقت بسبب هول المصيبة فيحاول الوصول إلى هدف واضح من خلال طرح أسئلة لا يريد الإجابة عليها بل يريد الوصول من خلالها إلى هدفه الأساسي في رثاء أمه، فيقول إلى أين ممكن أن أسير وقد تركت كل شيء حققته خلفي ولا أريد العودة له، ويطرح السؤال الجدلي الأول فيقول سأسير نحو محبوبتي ولكن أي واحدة منهن فكل واحدة منهن على يقين أني مولع بها، وهنا يحاول الشاعر أن يرضي غروره بأنه مازال محبوباً ومرغوباً به رغم تقدم سنه ثم ما يلبث أن يخرج من هذه الحالة إلى الضياع مرة أخرى فينوي التوجه نحو السراب حبواً مع يقينه أنه سراب وسيتلاشى عند وصوله إليه.

أين المسيرُ وكلُّ أحلامي التي

شَيدتُها خلفي، فأين أسيرُ؟!

نحو الحبيبةِ؟!

أيُّهنَّ؟! فإنني في ظَنهنَّ بكلِّهنَّ أسيرُ

نحو السرابِ؟!

إذن سأحبو، فالسرابُ إذا بلغتُ رحابَهُ سيغورُ

المقطع الثالث: الصفات الخارجية لوالدة الشاعر

بعد هذا الضياع المصطنع يصل الشاعر إلى غايته فطريقه معروف منذ البداية ولكنه اختار التمهيد له بأنه طفل شاخ فجأة ليضيع في هذه الحياة بعد موت أمه وهو الآن يشعر بالشوق لها ويفتقدها، فيلجأ للحديث عنها وتذكرها تلك الذكرى التي تحمل له ألماً بالفقد يغتاله وفي نفس الوقت يشعر بالراحة والاستئناس لذكرها فذكرها يعالج ما تركته الأيام من جروح في قلب الشاعر، فيبدأ بالإسهاب في وصفها وتصويرها على أنها شمس البيت التي تشرق كل صباح، فهي امرأة ريفية تستيقظ من الصباح الباكر كل يوم لتعد لهم الخبز بصحبة رفاقها المعتادين الشمس والتنور ويقول بأن مجلسها البسيط وحصيرها الصغير يضاهي أجنحة النساء الفخمة، وهنا يبدأ الشاعر بالمقارنة الأولى في قصيدته والتي يستفيد فيها من ثقافة المكان حيث يقيم في مهجره فالحرملك (Haremlik) كلمة عثمانية يقصد بها جناح النساء في القصر، فقد اعتاد السلاطين العثمانيين تخصيص جناح كبير من قصورهم لنسائهم وأهل بيتهم لا يقل جمالاً وإبداعاً عن أي جناح آخر في القصر.

ويتابع الشاعر وصفه لأمه التي كانت ربة منزل، ولكنه مازال يضفي عليها أجمل الصفات والخصال ليوضح قداستها كأم غير اعتيادية، فيداها تنشران المسك وشاهده على ذلك حبل الغسيل الذي لم يزل يبكي على فراقها وفيه بقايا عطرها، ويتابع بوصف ما بقي في ذاكرته من عطرها فهي لم تكن تتعطر بأفضل العطور وتتبخر بأجود البخور، بل كانت إنسانة بسيطة رائحتها من رائحة تنورها حيث تصنع خبزها كل يوم، وهذا العطر يساوي عند الشاعر أفضل عطور باريس لأنه بكل بساطة عطرها ورائحتها التي بقيت عالقة في مخيلة الشاعر بعد أن رحلت أمه.

ويتابع الشاعر بوصف أمه بأجمل الأوصاف فهي استمدت جمالها من جمال الطبيعة فيقول أنها تتوضأ من نهر الفرات العذب فيسكن وجهها نور الفرات وبريقه، بل أنها استمدت من الفرات أيضا جمال منطقها وكلامها وهنا نرى الشاعر يعتز ببيئته ويحدد منبته على أرض الفرات، ثم ينتقل إلى وصف عيونها فهي حوراء وهذا الجمال في عينيها لا يوازيه أي جمال حتى صورة الموناليزا، وهنا المقارنة الثالثة في نفس

المقطع فبعد أن قارن أول مرة حصير أمه بقصور سلطانات الدولة العثمانية مستفيداً من ثقافة المكان خلال إقامته في تركيا نراه يعود إلى باريس ليستفيد من ثقافة المكان مرة أخرى فنراه يفضل رائحة أمه على عطور باريس الرائعة والتي تعد مملكة العطور، وفي نهاية المقطع يعود مرة أخرى إلى باريس حيث أقام في سنين شبابه فيها ليقارن جمال عيون أمه وجمال الموناليزا لوحة دافنشي الشهيرة التي تزين متحف اللوفر في باريس ويذهب إليها مئات الآلاف ليروها كل عام فعشاقها مازالوا في حيرتهم من نظراتها وابتسامتها، ولكن لاشيء أجمل من أمه ولا شي يشبه أمه حتى الموناليزا بذاتها.

نحو المدينةِ حيثُ أُمي؟!

لا تُذكِّرني.. فقد يغتالني التذكيرُ

أمي.. تعالَ بذكرِها ننسَ الهمومَ فذكرُ أمي - يا سميرُ - سميرُ

للشمس ِ كرسيٌّ هناك ببيتِنا

فرفاقُ أمي الشمسُ والتنورُ

وحصيرُها في الحَيِّ كان حَرَملكًا

وتغارُ من ذاكَ الحصيرِ قصورُ

وبكفِّها مسكٌ

وسَلْ حبلَ الغسيلِ فلم يزلْ يبكي وفيه عبيرُ

وبَخورُها من دَخنةِ التنورِ

يا باريسُ هل مِن مثلِ ذاك عطورُ؟!

ووَضوءُ أمي حفنتانِ من الفراتِ

لذاكَ يسكنُ وجهَ أمي النورُ

وإذا حكتْ فكأنما نطقَ الفراتُ

فصوتُها عذبٌ وفيه خَريرُ

وبعينِها حَوَرٌ وألفُ قصيدةٍ

ما الـ (مونَلِيزا) حين تُذكرُ حُورُ؟!

المقطع الرابع: الصفات النفسية لوالدة الشاعر

بعد أن انتهى الشاعر من ذكر صفات أمه الخارجية بأجمل الأوصاف أراد أن ينتقل إلى ذكر صفاتها الداخلية، ولكن قبل ذلك احتاج تبريراً لأي نقص محتمل وحمّل ذاك النقص إلى العروض وبحور الشعر فكلها لا تكفي لوصف أمه.

فأمه هي الكريمة المعطاءة التي تقاسم خبزها جيرانها، وتكرم ضيفها، ولا تنسى الطيور من فائض كرمها، وهذه الطباع الجميلة والخصال الكريمة جعلتها كأنها سلطانة لا يظلم عندها أحد وهذه الدولة إنما هي دولة الحب التي تنشر الحب للعالم وما الشاعر إلا سفير لها.

أحتاجُ بحرًا يا خليلُ لأجلها

لم تُوفِ أمي يا خليلُ بحورُ

فأراه ينقصُ كاملٌ في وصفِها

وبوصفِها إن الطويلَ قصيرُ

أمي التي للجارِ نِصفُ رغيفِها

والضيفُ يأكلُ نِصفَهُ وطيورُ

سلطانةً كانت لأعظمِ دولةٍ

فيها تساوى حاجبٌ ووزيرُ

في قلبِ أمي دولةُ الحُبِّ التي

منها أنا للعالمينَ سفيرُ

المقطع الخامس: مراسم التشييع

وفي مقطعه الأخير يصف الشاعر مراسم التشييع والتأبين لأمه مضيفا لها قداسة وأوصافاً لا تخطر سوى في مخيلة طفل فقد أمه، وهنا يعود الشاعر إلى الماضي وينقل صوراً لدفن أمه لا توجد إلا في حكايات الأطفال فقد شاركته الشمس البكاء على أمه وساعده عصفور في تشييعها وحتى الجمادات تحركت لموت أمه فباب البيت يمسك بالنعش راجياً إياهم إعادتها والدور تنوح وتبكي.

ونرى الشاعر يعود من رحلته نحو طفولته التي استعار منها مراسم التشييع ليعود للواقع ويعاتب حفار القبور، ويقول له أمي ستبقى ذكراها محفورة في كل القلوب حتى وإن دفناها هنا، ثم يمسك الشاعر زمام الأمور وقد اندمج بواقعه فبدأ يشارك بالدفن ويحثو التراب على جثمان أمه ويقول كأني لا أحثو تراباً وإنما احثو روحي التي في جسدي وبقلبي صرخات ألم كأنها زئير أسد مكلوم.

ويختم قصيدته بانتهاء مراسم الدفن وعودته إلى حياته وواقعه بعد أن ترك مرثيته كشاهد على هذا الحدث العظيم، وفي بيته الأخير نجد ألماً كبيراً وشعور باليأس فهو يتساءل متى سينتهي اغترابي ومتى أعود لأمي وأمه فهي رمز السلام والراحة والاطمئنان.

شَيَّعتُها.. والشمسُ خلفَ غمامةٍ تبكي

وشيَّعها معي العُصفورُ

والبابُ أمسكَ نعشَها: لا ترحلوا

باللهِ رُدُّوها وناحَ الدُّور

وعلامَ يا حفَّارُ تحفرُ قبرَها؟!

أمي لها كلُّ الصدورِ قبورُ

وحثوتُ.. لم أحثُ الترابَ وإنما

روحي حثوتُ، وفي الضلوعِ زئيرُ

ورجعتُ.. والدربُ الذي سِرنا به

نبتَت عليه قصيدةٌ وسطورُ

حتَّامَ أبقى يا دروبِ مهاجرًا

ومتى لأمي يا دروبُ أحورُ؟!

2- البنية الفنية

ينحدر الشاعر من بيئة فراتية تركت أثراً واضحاً في شخصيته وأشعاره يضاف إلى ذلك تعلقه الشديد بأمه والأثر العظيم الذي تركته في نفسية الشاعر فنراه يعدها منبت كل خير فيه يقول:

إني الفراتي الذي زرعت به

أمي السنابل والفرات سقاني

العنوان:

"سفيرٌ من قلب أمي" يوحي لنا هذا العنوان حتى قبل أن نقرأها ونعرف غرض القصيدة بتباعد المسافات بين الشاعر وأمه لدرجة احتياجه لسفير يمثلها في غيابها فكيف إذا كان الغياب هو غياب أبدي سببه موتها واستحالة الوصول إليها، لذا يحاول الشاعر التعبير عن خلجات نفسه من خلال هذه القصيدة التي يرثي بها والدته ويصور مراسم تأبينها وحاله بعد وفاتها.

الألفاظ:

جاءت ألفاظ الشاعر سهلة وواضحة فقد أراد الشاعر من خلالها إيصال صوته وبث حسرته على فراق أمه فنجد التكرار في لفظة (أمي) يربط أجزاء النص ويجعله ينطق بألم واحد، فإذا أمعنا النظر وجدنا لفظة (أمي) تتكرر في النص ستاً وعشرين مرة بعدد أبيات القصيدة، وبأشكال مختلفة منها إحدى عشرة مرة بلفظها الصريح وثلاث مرات بالكناية (الحنونة، الحبيبة، سلطانة) واثنتا عشرة مرة بالضمير العائد إليها (مصيرها، بكفها، بخورها، صوتها، بعينها، تُذكر، وصفها، رغيفها، كانت، شيعها، نعشها، قبرها)

التراكيب:

جاءت معظم التراكيب في القصيدة بسيطة ومباشرة من غير تكلف ولعل الشاعر قد حقق مراده من ذلك بإيصال صوته ورسالته لجميع القراء، وقد تراوح طول الجمل في القصيدة بين المتوسط والطويل ومعظم الجمل كانت فعلية حيث ركز الشاعر كثيراً على الحركة من خلال وصفه لأمه وتأبينها.

للجار نصف رغيفها

أمي تعال بذكرها ننس الهموم

ووضوء أمي حفنتان من الفرات.

التكوين الجمالي في النص:

نظم الشاعر قصيدته على البحر الكامل بحرف روي هو الراء المضمومة، وزاوج الشاعر في تجربته الشعرية بين الأسلوبين الخبري والإنشائي في أبيات امتلأت بالعاطفة الجياشة والحزن والشوق معاً وكأنه يكتب القصيدة بالدموع لا الحبر وأغناها بالصور والأخيلة كي يضمن للقارئ تذكرة الرحلة في البعد الزماني والمكاني لقصيدته.

استهل الشاعر القصيدة بالفعل (أحبو) مشيراً إلى ذلك الطفل الصغير في داخله رغم أنه شاب وتجاوز الخمسين وينتقل فوراً ليصور المشهد باستعارة جميلة وفق فيها الشاعر " تسبقني الدروب" فقد الجعل الدروب في سباق معه وهو لا قوة له على السباق ومضى من عمره أكثره مستخدما التصريع في البيت الأول تسير- كثير.

يكمل الشاعر توضيحه لهذه الصورة ليخبرنا بمدى عجزه وثقل الألم عليه فيقول إن الدروب كانت تسير فوقه في أسلوب بديعي اعتمد فيه على الجناس الناقص (يسيرـ تسير) ثم يتابع بوصف هذا الطريق الموحش المليء بالموت وعدم حاجته للإسراع فيه حيث بدأ البيت الثالث بإنشاء طلبي (علام أسرع) وأنهاه بتشبيه بليغ (الرصفان قبور) ليوضح لنا كمية الخوف والوحشة في هذا الطريق الذي أصبحت رصفانه قبور لكثرة الهالكين فيه.

ينتقل الشاعر إلى الجزء الثاني من رحلته والتي يوحي لنا بضياعة المؤقت فيها مستهلاً المقطع الثاني بأسلوب إنشائي طلبي (أين المسير) مؤكداً على ضياعه وعدم جدوى التقدم للأمام فكل شيء جميل وكل الأحلام أمست ذكرى من الماضي البعيد، ويعود في البيت الذي يليه ليستخدم ذات الأسلوب الإنشائي الطلبي بصيغة الاستفهام (أيهن) بعد أن مهد لذلك "نحو الحبيبة" ليوحى لنا من خلال هذا الأسلوب بكثرة معجباته ومتيماته، ثم ينهي المقطع الثاني من قصيدته بتأكيده على شعور الضياع والوحدة واليأس في آن

واحد فيقرر أن يمضي نحو السراب لعله يتخلص من هذه الحلقة المفرغة التي حبس نفسه بداخلها مؤكداً أنه لا طريق سوى المواجهة للخلاص من هذه الأخيلة فالسراب يختفتي وتنجلي حقيقته حال وصولنا إليه مستخدما صورة بسيطة وواضحة من خلال استعارة (السراب يغور)

بعد أن انتهى الشاعر من ضياعه المؤقت يخبرنا سريعاً بأنه وجد بوصلته وحدد اتجاهه فطريقه نحو إلى مدينته دير الزور حيث أمه وذكرياته، فيمزج في شطر واحد بين الأسلوب الإنشائي الطلبي (لا تذكرني) والأسلوب الخبري الطلبي (قد يغتالني التذكير) واستعارة تحمل في طياتها الكثير من المعاني فقد جعل التذكير سبباً محتملاً لموته من فرط الشوق والحزن.

يبدأ الشاعر بعد أن حطت رحاله في المدينة بوصف المشهد في صورة يحضّر فيها القارىء للاطلاع على صفات هذه الأم العظمية من خلال إخباره بأن الحديث القادم ممتع وجميل ولجماله فأنه ينسيك همومك من خلال استخدامه لأسلوب الإنشاء الطلبي (تعال- ننس) وخاتماً بيته بأحد أجمل المحسنات البديعة الجناس التام (سمير – سمير)

بعد أن حضّر القارئ لمشهد من الصور والأخيلة التي تصف أمه وتعرفه عليها يبدأ بذكر هذه الصفات مستفيداً من خياله الواسع وموظفاً عناصر البيئة الفراتية لخدمة المشهد، فيستهل البيت باستعارة تصف بيتهم العربي المكشوف الذي تدخله الشمس من كل مكان حتى أصبح له كرسي ومكان دائم فيه (للشمس كرسي)، ويختم بيته بتشبيه بليغ يصف فيه أمه وأصدقائها الشمس والتنور موضحاً لنا أهمية التنور في البيت الفراتي التقليدي (رفاق أمّي الشّمسُ والتّنورُ).

يتابع الشاعر رسم صورة أمه في بيتها موظفاً في ذلك خياله وثقافته بتشبيه بليغ (حصيرها حرملكاً) فقد شبه حصيرها البسيط بجناح قصور سلطانات وأميرات العثمانيين ولا يرتضي بذلك فقط، بل يجعل من هذا الحصير محط أنظار أميرات بني عثمان لدرجة تجعلهن يغرن منه وكأنه يحمل سراً ما يجعله أحد أسباب مستخدما استعارة مباشرة لترسيخ هذه الصورة في ذهن القارئ (تغار قصور)

ينتقل الشاعر إلى تقديس أمه من خلال إحاطتها بصفات جمالية نابعة من دورها كأم مؤكداً على قداسة هذا الدور حتى بأبسط أدوارها اليومية فنراه ينتقل إلى حبل الغسيل كشاهد على طيب الرائحة النابعة من كف أمه في مشهد ينتقل فيه الشاعر إلى التشخيص ومحاولة الانطاق فالحب يبكي بحرقة الفراق وما يزال

محتفظاً بجزء من عبير كف والدة الشاعر في بيت مليء بالصور الجمالية بدأه بكناية عن طيب الرائحة (بكفها مسك) واختتمه باستعارة (حبلَ الغسيلِ لم يزلْ يبكي) ربط بينهما بأسلوب إنشائي طلبي (سلْ حبلَ الغسيلِ).

يستمر الشاعر في مشهد وصف الرائحة الطيبة لوالدته محاولاً إيصال القارئ لدرجة من الاندماج يستطيع من خلالها شم تلك الرائحة الجميلة رغم بساطتها المستمدة من البيئة الريفية فهي لا تضع عطراً وأنما يبقى عليها جزء من دخنة التنور وهي تعد خبز الصباح لعائلتها، ويصفه الشاعر أنه بخورها المعتاد لتشابههما بنفس الصفة، فكلا الصورتين (التنور – البخور) تعتمد على الاحتراق لإنتاج رائحة، ولكن دخنة التنور الملتصقة بثياب والدته تساوي عند الشاعر أنفس عطور باريس فنراه يسألها وهي المشهورة بأفضل أنواع العطور مستخدما أسلوب إنشائي طلبي جاء بصيغة النداء (يا باريس) فنراه بدأ بالتشبيه (بخور أمي دخنة التنور) وختم بالاستفهام والنداء والمقارنة ليؤكد لنا تلك الصورة المقدسة لوالدته.

ينتقل الشاعر في وصفه لأمه من صورة إلى صورة ومن مشهد إلى آخر في سرد بعض صفاتها الخارجية معتمداً على أساسين لا يكاد يهملهما الأول هو تقديس هذه الأم وجعلها بمنزلة عالية لمكانتها في قلبه أولاً ولمكانتها في المجتمع ثانياً، أما الأساس الثاني هو ربط هذا القداسة بالبيئة الفراتية فنراه يرسم لنا صورتها من خلال استعارة جعل النور فيها يسكن وجه أمه (يسكن وجه أمي النور) رابطاً هذا النور بسببين مباشرين الأول ديني (وضوء أمي) فهو يلمح لما يتركه الوضوء والصلاة من أثر على المسلم، والسبب الثاني هو ماء الوضوء نفسه فهي توضأت بماء الفرات وهنا يمنح الشاعر نهر الفرات قداسة ضمنية ألمح إليها في هذا البيت.

بعد أن رسم لنا الشاعر مشهد بديع بدأه بوصف طيب رائحة أمه في بيتين متتالين فكفها ينشر المسك والعبير وبخورها أجمل من عطور باريس انتقل إلى وجهها ونورها المستمد من وضوئها من نهر الفرات، يذهب شاعرنا إلى صوت أمه ليصف جمال نبرته وحلو منطقه فيعود مجدداً لنهر الفرات مستخدما أسلوب الاستعارة للتعبير عن هذه الصورة (نطق الفرات) واصفاً كلامها بالعذوبه والسلاسة المستمدة مباشرة من نهر الفرات.

يختم الشاعر وصفه لبعض صفات والدته الخارجية بذكر جمال عيونها فهي حوراء وعيونها سوداء

يحيطها بياض ناصع وهذه من أجمل الصفات التي توارث الشعراء استخدامها فقد سبقه جرير حين قال:[1]

إن العيون التي في طرفـــها حور   قتلننا ثم لم يـحين قـتــلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله أركانا

وجاءت لفظة الحور في القرآن: (حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ)

وفي الحديث الشريف عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال[3]: إنَّ أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً، رَجُلٌ صَرَفَ اللَّهُ وجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الجَنَّةِ، ومَثَّلَ له شَجَرَةً ذاتَ ظِلٍّ، فقالَ: أيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إلى هذِه الشَّجَرَةِ أكُونُ في ظِلِّها وساقَ حديثا وفيه.. ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ، فَتَدْخُلُ عليه زَوْجَتاهُ مِنَ الحُورِ العِينِ، فَتَقُولانِ: الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أحْياكَ لَنا، وأَحْيانا لَكَ، قالَ: فيَقولُ: ما أُعْطِيَ أحَدٌ مِثْلَ ما أُعْطِيتُ.

فالشاعر هنا يقول إن جمال عيون والدته يكتب به ألف قصيدة ولا مجال لمقارنتها مع أي أحد حتى مع الموناليزيا تلك اللوحة التي احتار في وصفها الجميع لا تعد شيئا إذا ما قورنت بالحور وقد استخدم الشاعر في هذا البيت محسناً بديعياً زاد البيت جمالاً وتناسقاً (حَوَرٌ_ حُوْرُ) جناس ناقص

ينهي الشاعر هذا المقطع باعترافه بالعجز أمام وصف أمه حيث استخدمه فن التورية للتعبير عن هذا الشعور فأراد بالخليل الصّاحب بالمعنى القريب، وفي المعنى البعيد أراد الخليل بن أحمد الفراهيديّ مؤسس علم العروض ليمده ببحر جديد ليكمل وصف أمه وقد بدأ البيت بأسلوب خبري (احتاج بحرا) وضمنه بأسلوب إنشائي مستخدما النداء (يا خليل)

يبرر الشاعر طلبه الغريب هذا بأسلوب رائع مستخدماً أساليبَ بديعية وصوراً بيانية جميلة مستخدماً الطباق مرتين (ينقص _ كامل) فجعل من البحر الكامل والذي نظم هذه القصيدة عليه والمعروف عنه بمناسبتة لكل الأغراض الشعرية ناقصاً عن وصفها، ويتابع على نفس المنوال في الشطر الثاني إذا يستخدم الطباق (الطويل _ قصير) معبراً عن قصر هذا البحر وعدم كفايته لوصف أمه ومن الجماليات الأخرى التي أضافها الشاعر لهذا البيت هي الأزدواج في استخدام البيان والبديع في آن واحد فعبارة (الطويل قصير) هي محسن بديعي (طباق إيجاب) وفي ذات الوقت هي تشبيه بليغ.

(1) ديوان جرير ص 492

(2) سورة الرحمن (72)

(3) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ج1 ص175

بعد أن أنهى الشاعر سرد بعض الصفات الخارجية لوالدته، واعتذر في البيتين الآخريين عن عدم إكمال بقية صفاتها وترك معرفة تلك الصفات لخيال القارئ لينتقل إلى ذكر الصفات الداخلية، والخصال التي تتمتع به هذه الأم العظيمة فبدأ بالكرم وهي أهم الصفات التي تفتخر بها الشعوب عموماً ويفتخر بها العربي خصوصاً لسيرد لنا بيتا كاملاً كناية عن كرم أمه فيرسم لنا مشهداً من خياله، فهي من شدة كرمها لا تكاد تترك لنفسها شيئاً من خبزها بعد أن تقسمه بين جيرانها وضيوفها وترمي ما بقي من فتاته للطيور.

ينتقل من الكرم إلى العدل وحسن الإدارة فوصفها بالسلطانة التي تحسن الإدارة فتجعل من دولتها أعظم دولة والشاعر هنا يقصد بيتها وأسرتها، فيتساوى في هذه الدولة العظمية الجميع من حيث الحقوق وحسن المعاملة مستخدما ألفاظاً من خلفيته الثقافية التاريخية (سلطانة – حاجب- وزير) ومستخدماً محسناً بديعياً وهو الطباق لإيضاح الصورة (حاجب - وزير)

بعد أن شبهها بالسلطانة وأثنى على خصالها يخبرنا أخيراً أن دولة الحب مشيدة في قلب أمه (كناية عن الحب بأشكاله الذي تتمع به أمه) وما الشاعر إلا عبارة عن سفير من هذا الدولة المشيدة بالحب إلى العالم ليخبرهم عنها، ويمثلها أمام الناس من خلال قصائده، وشعره وها هو الآن بعد أن وصفها مبتدأ بالصفات الخارجية فالصفات الداخلية والخصال الحميدة التي تتمتع بها رسم صورة في ذهن القارئ عن هذه الأم الرائعة، فكانت لوحته التي رسمها ببلاغة كلامه وصوره البيانية واستخدامه لأساليب التشبيه والاستعارة والكناية، والمحسنات البديعية كالطباق والجناس، وغيرها بالأضافة إلى تناوب الأسلوبين الخبري والإنشائي في قصيدته كفيلة لرسم وترسيخ صورة أمه عند القارئ، وإثارة مشاعره نحو أمه وقد حقق هذه الغاية وأصبح الوقت ملائماً للانتقال إلى مراسم التشييع.

يبدأ الشاعر وصف مشهد التشييع بشكل مباشر من خلال الفعل (شيعتها) مشيراً لها بالضمير العائد (ها الغائبة) ولنفسه بـ (تاء الفاعل)، ولكنه بعد هذه المباشرة يتدارك نفسه ويعود لاستخدام أدواته في رسم مشهد التأبين مستخدما الإنطاق والتجسيد والتشبيه والاستعارة فبعد أن ذكر الشمس كرفيقة لأمه ولها مكان بين العائلة في المنزل (للشمسِ كرسيٌّ هناك ببيتِنا فرفاقُ أمي الشمسُ والتنورُ)

عاد لهذه الرفيقة ليصف لنا حالها في تشييع والدته فيصورها لنا الشاعر وهي تبكي خلف الغمام بحرقة على والدته تلك الرفيقة التي غادرت هذا الحياة من خلال تجسيد الشمس باستعارة مكنية (شَيَّعتُها.. والشمسُ خلفَ غمامةٍ تبكي)، ولا يكتفي بالشمس فقط فيعود لعناصر لوحته الرئيسة الأولى عندما رسم الطيور التي كان لها نصيب من خبز أمه (أمي التي للجارِ نِصفُ رغيفِها

والضيفُ يأكلُ نِصفَهُ وطيورُ) ليخرج من هذه اللوحة عصفوراً يشارك الشاعر في تشييع والدته بتجسيد واستعارة أخرى (شيعها معي العصفور)

يتابع الشاعر تصوير مشهد التشييع واستنطاق كل شيء حوله فينتقل إلى باب البيت الذي رفض خروجها مستحلفاً حَمَلة النعش أن يردوها ولهذه الاستعارة (الباب أمسك نعشها)، ثم استنطاق الباب من خلال أسلوب إنشائي طلبي (لا ترحلوا، بالله ردوها) دلالة كبيرة وذات أهمية أراد الشاعر من خلالها إيصال مدى الحزن الذي خيم على البيت لدرجة أن شي جامد نطق وتأثر على فقدانها، ولا يقف الشاعر عن الباب فقط بل جسد الدور أيضاً ومنحها مشاعراً لتنوح على فقدان أمه في لوحة مليئة بالحركة والتعابير تحمل في طياتها حزناً عميقاً عبر عنه الشاعر من خلال هذه الاستعارة (ناح الدور)

ينتقل الشاعر في المقطع الأخير من قصيدته إلى مراسم التشييع إلى مراسم الدفن مخاطباً حفار قبر أمه مستنكراً فعله، وهنا يخرج الشاعر عن نطاق سيطرته على مشاعره فيوبخ الحفار على أداء عمله محتجاً بأن مكان أمه ليس في حفرة تحت الأرض، بل مكانها في قلوب محبيها مزاوجاً بين الأسلوب الإنشائي (علام ــ يا حفار) والخبري (أميّ لها كلُّ الصّدور قبورُ)

نراه بعدها يستسلم لواقعه فينتقل لوصف حالته أثناء مشاركته في الدفن معبراً عن صعوبة هذا الفعل عليه رغم بساطته وكأنه لا يدفنها بالتراب، بل ببقايا روحه المتهالكة معبراً عن ذلك بأسلوب بديعي وهو الطباق السلبي (حثوت- لم أحث)، وفي الشطر الثاني من هذا البيت يعبر عن الأحاسيس المتراكمة والمختلطة في داخله وكأنه وحشاً جريحاً بداخله مستخدما الكناية للدلالة على شعور الغضب والحزن في آن واحد (وفي الضلوعِ زئيرُ)

انتهى الآن مشهد الدفن وعاد الجميع لم يبق لشاعرنا إلا أن يصور لنا نهاية هذا الشريط من الذكريات التي صاغها بحبر حروفه وريشة خياله ليرسم لنا لوحة متكالمة الأبعاد والألوان عكس من خلالها طيبة رائحة أمه، وجمالها الداخلي والخارجي ورقتها وما ترك فيها الفرات من أثر وصولاً إلى مشاهد التشييع والدفن، وها هو الآن يصف طريق عودته بالمزهر بعد أن مرت جنازة أمه فيه فقد أزهر أدباً وشعراً من خلال هذه الرثائية التي أبّن فيها الشاعر والدته وخلد ذكراها بقوله معبراً عن هذه النقطة باستعارة مكنية (نبتت عليه قصيدة وسطور)

وفي بيته الأخير وبعد أن أكمل لوحته وأوصل رسالته يسيطر على الشاعر التعب من مشواره الطويل الذي بذل فيه شبابه وصحته وعمره، فيلمع في مخيلته طيف أمه التي يعتبرها ملجأه الوحيد من ضغوط الحياة وقسوتها فيتسائل الشاعر عن موعد انتهاء هذا البعد والسفر والغربة ومتى سيعود إلى وطنه وأمه.

ومما تقدم نجد أن الشاعر استطاع نقل تجربته الشعورية، وبث الروح في أبياته بأسلوب فني جميل تناسق فيه اللفظ مع المعنى فلم يغرق الشاعر في الرمزية وابتعد عن المباشرة فألبس قصيدته ثوباً جميلاً من المحسنات البلاغية، وكان يغذي أبياته بالكثير من العواطف ساعده على نقلها حسن استخدامه للتشابيه والاستعارت والكنايات والتصريع والجناس والطباق في تزاوج جميل بين الأسلوبين الخبري والإنشائي، وفيما يلي جدول يمثل استخدامه لهذه الأساليب مع مواضعها.

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
تسبقني الدّروب	استعارة مكنيّة	البيت الأول
الرّصفانُ قبورُ	تشبيه بليغ	البيت الثالث
السّرابُ يغورُ	استعارة مكنيّة	البيت السادس
يغتالني التّذكيرُ	استعارة مكنيّة	البيت السابع
للشّمس كرسيٌّ	استعارة مكنيّة	البيت التاسع
رفاق أمّي الشّمسُ والتّنورُ	تشبيه بليغ	البيت التاسع
حصيرها حرملكًا	تشبيه بليغ	البيت العاشر
تغارُ قصورُ	استعارة مكنيّة	البيت العاشر
بكفّها مسكٌ	كناية عن صفة (طيب الرائحة)	البيت الحادي عشر
حبلَ الغسيلِ لم يزلْ يبكي	استعارة مكنيّة	البيت الحادي عشر
يسكنُ وجهَ أمي النورُ	استعارة مكنيّة	البيت الثالث عشر
نطق الفرات	استعارة مكنيّة	البيت الرابع عشر
أحتاجُ بحرًا يا خليلُ لأجلها	تورية	البيت السادس عشر
الطّويل قصير	تشبيه بليغ	البيت السابع عشر
أميّ دولة الحبّ	كناية عن صفة (الحب)	البيت العشرين

الشّمسُ تبكي - شيَّعها معي العُصفورُ	استعارة مكنيّة	البيت الواحد والعشرون
الباب أمسك نعشها - ناح الدّورُ	استعارة مكنيّة	البيت الثاني والعشرون
نبتت قصيدة وسطور	استعارة مكنيّة	البيت الخامس والعشرون

المحسنات البديعية	نوعه	موقعه
تسير، كثير	تصريع	البيت الأول
يسير، تسير	جناس ناقص	البيت الثاني
سمير، سمير	جناس تام	البيت الثامن
حَوَرٌ، حُوْر	جناس ناقص	البيت الخامس عشر
ينقص، كامل – الطّويل، قصير	طباق إيجاب	البيت السابع عشر
حاجب، وزير	طباق إيجاب	البيت التاسع عشر
حثوتُ، لمْ أحثُ	طباق سلب	البيت الرابع والعشرون

الأسلوب	نوعه	موقعه
علامَ أسرعُ	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثالث
أينَ المسيرُ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الرابع
أيُّهنَّ	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الخامس
لا تُذكِّرني	أسلوب إنشائي نوعه نهي	البيت السابع
قد يغتالني التّذكيرُ	أسلوب خبري طلبي	البيت السابع
(تعالَ) (ننسَ)	أسلوب إنشائي نوعه أمر	البيت الثامن
سلْ حبلَ الغسيلِ	أسلوب طلبي نوعه أمر	البيت الحادي عشر
يا باريس	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الثاني عشر

أحتاج بحرًا	أسلوب خبري	البيت السادس عشر
لا ترحلوا	أسلوب إنشائي نوعه نهي	البيت الثاني والعشرون
يا حفّارُ	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الثالث والعشرون
أميّ لها كلُّ الصّدور قبورُ	أسلوب خبري	البيت الثالث والعشرون
يا دروبِ	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت السادس والعشرون



رثاء الولد

الشاعر صلاح الخضر

الشاعر صلاح الخضر مواليد ١٩٧٥ في مدينة حمص السورية يقيم في تركيا، مساعد مجاز في إدارة الأعمال من جامعة حلب.

مجاز في فن الخط العربي.

لديه عدة مجاميع شعرية قيد الطباعة حاليا منها (عرائش الريح_ الثلج الدافئ_ جراح لا تنام_ دموع الياسمين..)

قاص وروائي.

شارك في العديد من مسابقات الخط العربي المحلية والدولية.

له عدة معارض شخصية دولية في مجالي الخط العربي والرسم

يعمل مدرسا لمادة الخط العربي.

شارك وأشرف على إعداد عشرات الدواوين الشعرية والموسوعات الفنية كان آخرها (موسوعة المبدعون العرب ١٠٠٠قلم _ ديوان حتى آخر كلمة صدر منه ٣ أجزاء وجزءان منه تحت التدقيق والطباعة شعراء الرسول موسوعة الشعراء العرب وغيرها).


للاستماع للقصيدة امسح الرمز

الشاعر والقصيدة: تعد هذه القصيدة من أكثر القصائد المدروسة في هذا البحث إيلاماً وحزناً وألم الفقد فيها واضح وجلي فالأبيات تقطر حزناً على الولد الذي تخطفه الموت من أهله وناسه ولعل بكاء الآباء والأبناء أشد أنواع البكاء مرارة وألما فقد قيل لبعض العرب: لم صارت المراثي أرق أشعاركم، قَالَ: لأنا نبكي بها على الآباء والأبناء من قلوب قرحة وهكذا حال الشاعر في مرثيته:

"ألم الفقد"[(1)]

في ذمة الله طِبْ يا حارقا كبدي

ومتلفا خافقي بالفقد يا ولدي

لو يدرك الشعرُ من تبكي منابرُه

لكان نهر دمٍ يجري من البُرَدِ

قالوا رحلتَ فقلت اللهَ في وَحَدٍ

ما عاد يقوى على منفىً ومفتقَدِ

اللهَ في مهجةٍ تلظى بأوردتي

تذيب ما لم يطله الحزنُ من جسدي

الله في كبدٍ لو انها جبلٌ

ما كان يحمل ما حُمِّلتُ من جَلد

من مبلغٌ دورنا ألا لقاء لنا

والموت والخوف ما زالا يدا بيد؟

من يجمع الشمل والدنيا تبعثرنا

بين الجهات بكفّ الحزن والنكد؟

---

(1) صفحة الشعراء الألف على فيسبوك

ومن سيقنع أولادي بأن لهم

في ذمة العرب عهداً في كتاب غد؟

ما اوجع الشعر إن كانت مطالعه

دما بدمع مضى ينعى ولم يفد

ما كان أحلي زمانا لا يساء به

قلبٌ طريُّ الهوى خالٍ من الكمد

لكنه الدهر لا يصفو لذي أمل

وليس يأمن الا ساكن اللَّحَد

قد يقتل الحزن من يبكي على ولدٍ

فكيف يسلم.. من يبكي على بلد؟

1- البنية الفكرية

المقطع الأول: الألم والتفجع

يبدأ الشاعر قصيدته بتسليم ابنه لرعاية الله وذمته ويقول له طاب مقامك يا بني عند خالقك، أما أنا فكبدي تشتعل ناراً على فراقك وتلف قلبي لفقدانك، وبعدها يبدو الشاعر غير مصدقاً لرحيل ولده فيقول قالوا رحلت أي أنه مازال في حالة بين التصديق والتكذيب، ثم يستدرك متحدثاً عن نفسه داعياً الله أن يصبره ويرحمه فلم يعد يقوى على الاغتراب والفقد فقلبه يعصر ألما حارقا تذوب منه أعضاء جسده، ويدعو الله مرة أخرى بأن يرأف بحاله فيقول أن كبده ويعني بذلك نفسه تحملت ما لا يطيقه جبل من التحمل والصبر في الشدة.

في ذمة الله طِبْ يا حارقا كبدي

ومتلفا خافقي بالفقد يا ولدي

لو يدرك الشعرُ من تبكي منابرُه

لكان نهر دمٍ يجري من البُرَدِ

قالوا رحلتَ فقلت اللهَ في وَحَدٍ

ما عاد يقوى على منفىً ومفتقَدِ

اللهَ في مهجةٍ تلظى بأوردتي

تذيب ما لم يطله الحزنُ من جسدي

الله في كبدٍ لو انها جبلٌ

ما كان يحمل ما حُمِّلتُ من جَلد

المقطع الثاني: رثاء الوطن

ينتقل الشاعر إلى رثاء الوطن فيبحث عن أحد يوصل رسالته إلى الدور التي كانت عامرة بهم أن لا لقاء بعد اليوم، فالخوف والموت ما زالا يستبيحان أرضهم ودارهم، ثم يزيد من وصفه لغربتهم فجمع الشمل محال بعد أن تشردت الناس، وتفرقت العائلة الواحدة إلى الشتات، ودول اللجوء كل فرد تحت سماء تختلف عن سماء أهله و إخوته هذا اللجوء والهجرة المحفوفة بالمخاطر والموت كانت الدول العربية أولى بأخوتهم في الدم من الغرب ولكن من سيستطيع إقناع أولادي بذلك، ويتابع الشاعر واصفاً حرقته وألمه فقصيدته تقطر دماً ودمعاً ينعي ابنه ونفسه وداره لكنه مضى وانتهى كل شيء فلا فائدة منه والحال كذلك.

بعدها يلجأ الشاعر إلى الماضي الجميل والتاريخ البعيد ليواسي نفسه فيقول ما أجمل ذلك الزمان الذي كنا فيه أصحاب الأرض لا يستطيع أحد الإساءة إلينا، وهو بذلك يشير إلى العصور الذهبية في الحضارة العربية والإسلامية، أما الآن فقد تغير كل شيء والدهر كفيل بذلك فلا راحة إلى لساكني القبور، ويختم الشاعر قصيدته بأجمل أبياته فيها وأكثرها ايلاماً فيقول قد يموت حزناً من فقد ولداً فكيف بمن يبكي على بلد.

من مبلغٌ دورنا ألا لقاء لنا

والموت والخوف ما زالا يدا بيد؟

من يجمع الشمل والدنيا تبعثرنا

بين الجهات بكفّ الحزن والنكد؟

ومن سيقنع أولادي بأن لهم

في ذمة العرب عهداً في كتاب غد؟

ما اوجع الشعر إن كانت مطالعه

دما بدمع مضى ينعى ولم يفد

ما كان أحلي زمانا لا يساء به

قلبٌ طريُّ الهوى خالٍ من الكمد

لكنه الدهر لا يصفو لذي أمل

وليس يأمن الا ساكن اللَّحَد

قد يقتل الحزن من يبكي على ولدٍ

فكيف يسلم.. من يبكي على بلد؟

2- البنية الفنية

العنوان: (**ألم الفقد**)

يختزل هذا العنوان كماً كبيراً من المشاعر التي أراد الشاعر إيصالها في قصيدته فالفقد بكل أشكاله مجتمع في هذه الأبيات من فقد الأمان إلى فقد الحياة والأحبة والأهل إلى فقد الوطن، وخيبة الأمل الكبيرة التي عبّر عنها الشاعر في ختام قصيدته للدول العربية التي تخاذلت عن نصرة إخوانهم السوريين، أو حتى استقبالهم كلاجئي حرب.

الألفاظ:

سيطرت على القصيدة الألفاظ الدالة على الألم والفراق والموت (دم –دمع - يبكي- الموت- الحزن- النكد- الخوف...) وهو ما يعكس الحالة الشعورية لكاتب هذه الأبيات فألم الفراق وتعب الغربة ينتحتان جسده، ويذيبان فؤاده بعد كل ما شاهده من خوف وألم وموت.

التراكيب:

كانت التراكيب قوية ومترابطة متوسطة الطول أو طويلة في معظمها حيث أراد الشاعر التعبير عن كم كبير من الأفكار خلال أبياته، فاشمتل كل بيت على فكرة مستقلة بذاتها ومرتبطة بالشكل العام للقصيدة في ذات الوقت.

من يجمع الشمل والدنيا تبعثرنا

بين الجهات بكفّ الحزن والنكد؟

ومن سيقنع أولادي بأن لهم

في ذمة العرب عهداً في كتاب غد؟

ما اوجع الشعر إن كانت مطالعه

دما بدمع مضى ينعى ولم يفد

التكوين الجمالي للقصيدة:

نظم الشاعر قصيدته على البحر البسيط وحرف الروي هو الدال المكسورة غلب على الشاعر الحزن واستحوذت على كلماته مشاعر الألم واللوعة والأسى على ما حل بالبلد فالعاطفة في القصيدة صادقة تتدرج من الذاتية إلى الوطنية عبر فيها بأسلوب جميل ومتزن عن ألمه بفقد الأحبة، وغضبه من خذلان بعض العرب وتنصلهم من دورهم في نصرة إخوانهم وحزنه على البلاد وما حل بها من تدمير وخراب.

يبدأ الشاعر رسم عناصر الصورة الشعرية من خلال مزجه بين الأساليب الإنشائية والخبرية من جهة، والكنايات والاستعارات وغيرها من المحسنات البلاغية من جهة أخرى، فنراه استهل قصيدته بالدعاء والنداء من خلال دعاءه لابنه أن يطب نفساً في رعاية الله واستخدم النداء مرتين في البيت الأول ليوضح لنا مدى قرب الفقيد لقلبه (يا حارقا كبدي – يا ولدي).

استهلال الشاعر مرثيته بالدعاء تعبر عن تسليمه الكامل بقضاء الله، ولكنه يعبر بأدوات الشاعر والأب في آن واحد عن حزن عميق وجرح كبير خلّفه الفراق فنراه يستخدم الكناية مرتين للتعبير عن حرقة الفراق (حارقا كبدي) وألم الفقد (متلفا خافقي) الذي ترك الشاعر في حالة صعبة يعاني الحزن ولوعة الفراق.

ينتقل الشاعر في البيت الثاني إلى أسلوب التمني لتعظيم شأن الفقيد باستخدام الأداة لو فهو يتمنى أن الشعر يكون له أحساس ليدرك قيمة وعظمة هذا الشخص الذي يبكيه مستخدماً بذلك استعارة مكنية إذ شبه الشعر بالإنسان الذي يدرك ويعقل وليؤكد على عظيم الحزن على فراقه جعل المنابر تبكي باستعارة مكنية أخرى أضافت للوحته صوتاً وشعوراً (لو يدرك الشعرُ من تبكي منابرُه).

يتابع الشاعر توصيفه للمشهد ويجاوب على أسلوب التنمي الذي طرحه في بداية البيت فلو تحقق ما طرحه لأصبح الشعر المنظوم لبكائه كقصائد البردة جودة وكالنهر غزارة ولكنه نهر من دم وهنا كناية عن ألم الجرح وعظم المعاناة بالفقد (لكان نهر دمٍ يجري من البُرَدِ)

وفي البيت الثالث يؤكد الشاعر أنه تلقى هذا النبأ من الناس ولم يكن حاضراً فتمنى من الله أن يعينه فهو لم يعد يقوى على الحزن والألم الذي يعيشه بمغتربه، والذي أشار إليه بكلمه (منفى) ليوضح لنا أنه أجبر على الهجرة والرحيل ولم يكن الأمر بيده، فكيف إذا اجتمع النفي والفقد في آن معاً على شخص ضعيف وقد دل الشاعر على هذا المعنى باستخدام الكناية (ما عاد يقوى على منفىً ومفتقَدِ)

يتابع الشاعر مناجاته لربه كي يخفف عنه هول الصدمة وحجم الألم والجروح المتتالية التي أنهكت الشاعر ويعبر عن ذلك بصورة شعرية واستعارات تدل على حرقة قلبه بفراق عزيز، فدماء قلبه كالنار تحرق أوردته وتذيب بقية جسده المنهك أصلاً بأحزان تركت في كل قطعة من جسده جرحاً ينزف وألماً يتضاعف.

نجد الشاعر يكرر مناجاته لله عز وجل بنفس الأسلوب لثلاث مرات متتالية (اللهَ في وَحَدٍ - الله في مهجة - الله في كبد) مما يدل على عظم مصيبته التي عجز أن يتحملها، وهو في هذا البيت يصور كبده بأنها تحملت مالا تطيقه الجبال والعرب تستخدم الكبد بمعانٍ كثيرة فتقول فلذات أكبادنا (الأولاد) كناية عن قربهم منا وأنهم جزء منا ومنها يقول الشاعر: [1]

وإنّما أولادُنا بيننا.. أكبادُنا تمشي على الأرضِ

(1) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، أحمد قبش، ج1 ص36

لو هَبّتِ الريحُ على بعضهم.. لامتنعتْ عيني من الغَمْضِ

من ذلك الكبد، وهي المشقة. يقال: لقي فلان من هذا الأمر كبدا، أي مشقة. قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1]

، وكابدت الأمر: قاسيته في مشقة

بمقياس الصبر تقول كابدت الشيء أي قاسيته وصبرت عليه ولعل هذا ما أراده الشاعر وهذا ما يؤكده في نهاية البيت باستخدامه لكلمة (جلد) والتي تعني الصبر والتحمل وقد أشار أن مصائبه لو حملت لجبل ما كان ليطيقها (ما كان يحمل ما حُمِّلتُ من جَلد) وفي هذا الشطر استخدم الشاعر الجناس مما زاد المعنى وضوحا ورونقا.

ينتقل الشاعر من الإطار الشخصي إلى الإطار العام ومن وجعه الخاص إلى وجع الوطن بأكمله فيبدأ يرسم مشهداً جديداً لحالة الموت والخوف التي أجبرته على الرحيل فيستخدم الاستعارة ليجعل الدور كأنها إنسان تسمع وتحس، فيبحث عن أحد يخبرها بأن لا لقاء قريب سيجمعهم بها في ظل استمرار القهر والظلم في البلاد حيث الخوف والموت مازالا رفيقين هناك يمسك أحدهما بيد الآخر وفي هذا كناية عن سؤء الأحوال في بلاده.

يتابع الشاعر تساؤلاته بأسلوب إنشائي مستخدماً الاستفهام الاستنكاري حيث يسأل ولا يطلب إجابة لاستحالتها وبعدها عن الواقع المرير الذي يعيشه (من يجمع الشمل والدنيا تبعثرنا)، فبعد أن أكد استحالة عودته إلى داره في البيت السابق يؤكد على أنه من المستحيل أن يلتأم الشمل مجدداً بعد كل هذه الهجرة في كل الاتجاهات حول العالم، والموت الذي مزق الشمل وشتت الأُسر، وقد عبر عن ذلك الشاعر بصورة مركبة معبرة من خلال استعارة حيث شبه الدنيا بالإنسان الذي يبعثر وانتقل من هذه الاستعارة لاستعارة أخرى أراد منها الشاعر إثارة الخيال، وإيصال الصورة من خلال جعل الأمور المعنوية حسية فقد شبه الدنيا بالإنسان الذي يبعثر وجعل هذا الفعل من خلال كف للحزن فقد شبه الحزن بالإنسان الذي له كف.

ومن المحسنات التي زادت هذا البيت جمالاً ووضوحاً وأثراً في نفس السامع استخدامه للطباق في شطر البيت الأول (يجمع – تبعثر) في مشهد قوي وصارخ لنقل صورة شعب تعرض للموت والتشريد

(1) سورة البلد، الآية 4

بأكمله فلم يعد بالإمكان جمعه بعد كل هذا التشتت.

سلسلة من التساؤلات والاستنكارات يطرحها الشاعر للتعبير عن خوفه، وحزنه وحتى غضبه فها هو يستنكر تخاذل بعض العرب عن نصرة ومساعدة إخوتهم وقد لجأ الشاعر هنا إلى التخصيص مع إرادة العموم في مجاز عقلي عبر به الشاعر أن لأولاده ويقصد بها أبناء سوريا عهداً بأن يشهدوا يوم القيامة عند لقاء الله عز وجل أن العرب تركوهم ولم يقدموا لهم النصر والمساعدة مع قدرتهم على ذلك، ولكن الشاعر بدا غير متأكداً أنه قادراً على إقناعهم وحده فبحث عمن يساعده في هذه المهمة.

(ومن سيقنع أولادي بأن لهم   في ذمة العرب عهداً في كتاب غد؟)

استطاع الشاعر أن يرسم نهجاً هندسياً لقصيدته باستخدامه ثلاثيات متنوعة لغرض عام شامل تتفرع من أغراض ثلاثة متنوعة تغذّي الغرض العام بعد أن كرر مناجاته لله بنفس الأسلوب (اللهَ في وَحَدٍ – الله في مهجة – الله في كبد) يعود ليشكل ثالوثاً آخر باستخدامه أسلوب الاستفهام (من مبلغٌ دورنا ألا لقاء لنا – من يجمع الشمل والدنيا تبعثرنا – من سيقنع أولادي)

ينتقل الشاعر إلى منحى آخر في مرثيته عنوانها الحسرة والحزن مستهلها بأسلوب تعجب يتحدث فيه عن قساوة الشعر الذي يبدأ بالدماء والدموع، على عكس القصيدة العربية التقليدية التي تبدأ بالغزل والوقوف على على الأطلال (ما أوجع الشعر) ويختمه بيته بصورة شعرية استخدم فيها الاستعارة حيث شبه الدم والدمع بالإنسان الذي يمضي وينعى وفي هذا تجسيد أيضا، ثم يعود الشاعر ليتذكر أياماً كان الناس فيها لا يتعرضون لإساءة من أحد، يعيشون فيها بكرامتهم وعزهم ولعل الشاعر يقصد بهذا الزمن حين كان الملسمين في أوج قوتهم وعزتهم وقد عبر عن هذا من خلال اسلوب التعجب (ما كان أحلى)، وفي قوله (قلبٌ طريُّ الهوى خالٍ من الكمد) كناية عن راحة القلب واطمئنانه

يرجع بعدها الشاعر إلى سُنة الحياة وقاعدتها حيث لا يسلم أحد من الابتلاء والمصائب فالدهر لا يترك أحداً دون مشاكل، فلا تصفو الحياة لأحد طول حياته دون وجود ما يعكر ذلك الصفو بين الفينة والأخرى، وقد عبر الشاعر عن هذا بصورة شعرية استخدم فيها الاستعارة حيث شبه الشاعر الدهر بالماء الذي يصفو بعد تعكيره؛ وفي الشطر الثاني خلص إلى نتيجة مفادها أنه لا يوجد أحد مستثنى من الابتلاء إلا سكان القبور الذين توفاهم الله فتخلصوا من آلام الحياة وأوجاعها، وهنا يصل الألم والقهر بالشاعر إلى درجة يحسد فيها الأموات على خلاصهم بعد أن ذاق ويلات الحرب وأحزانها.

يختم الشاعر مرثيته ويضع ألوانه الأخيرة على لوحته التي رسم من خلالها تفاصيل الألم في فقد الولد والبلد وها هو يؤكد على صعوبة هذا الشعور، ورهبه هذا الموقف من خلال صورة شعرية شبه فيها الحزن بالإنسان الذي يقتل (قد يقتل الحزن من يبكي على ولدٍ) فهو يرى أن ألم فقدان الولد وما يتركه في النفس من جروح وفي الروح من حرقة كفيل بأن يقتل الفاقد غمّاً، ويكمل الشاعر هذه الصورة بجزء يجعل المعنى جلياً واضحاً حيث استخدم أسلوب الاستفهام الاستنكاري بغرض التعجب، فإن كان البكاء على ولد قد يقتل فاحتمال سلامه من يبكي على بلد ضعيفة جداً لأن الفاجعة أكبر والمصاب أعظم (فكيف يسلم.. من يبكي على بلد؟)

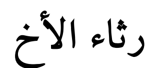
لقد وفق الشاعر بما ختم به قصيدته فالبيت يحمل معان كثيرة، ويختزل المراد من القصيدة كلها ولا يخلوا من حكمة مبطنة وشكوى يبثها للعالم بأسره؛ بالإضافة لما زين به البيت من محسنات لفظية ومعنوية كالاستعارة والجناس في قوله (ولد- بلد) وفيما يلي جدول يمثل استخدامه لهذه الأساليب في القصيدة مع مواضعها.

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
حارقا كبدي	كناية	البيت الأول
متلفا خافقي	كناية	البيت الأول
يدرك الشعرُ	استعارة تصريحية	البيت الثاني
تبكي منابرُه	استعارة تصريحية	البيت الثاني
نهر دم	كناية	البيت الثاني
مهجةٍ تلظى - تذيب	استعارة تصريحية	البيت الرابع
مبلغ دورنا	استعارة مكنية	البيت السادس
الموت والخوف ما زالا يدا بيد	كناية	البيت السادس
الدنيا تبعثرنا	استعارة مكنية	البيت السابع
كف الحزن	استعارة مكنية	البيت السابع
دما مضى ينعى	استعارة مكنية	البيت التاسع

قلب طري الهوى خال من الكمد	كناية	البيت العاشر
الدهر لا يصفو	استعارة مكنية	البيت الحادي عشر
يقتل الحزن	استعارة مكنية	البيت الثاني عشر

المحسنات البديعية	نوعه	موقعه
كبدي - ولدي	تصريع	البيت الأول
قالوا - فقلت	جناس ناقص	البيت الثالث
يحمل - حملت	جناس ناقص	البيت الخامس
يجمع – تبعثر	طباق إيجاب	البيت السابع
ولد بلد	جناس ناقص	البيت الثاني عشر

الأسلوب	نوعه	موقعه
يا حارقا كبدي	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الأول
يا ولدي	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الأول
قالوا رحلتَ فقلت اللهَ في وَحَدٍ	أسلوب خبري ابتدائي	البيت الثالث
من مبلغٌ دورنا؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت السادس
من يجمع الشمل	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت السابع
ومن سيقنع أولادي	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثامن
ما أوجع الشعر	أسلوب إنشائي نوعه تعجب	البيت التاسع
ما كان أحلى	أسلوب إنشائي نوعه تعجب	البيت العاشر
فكيف يسلم.. من يبكي على بلد؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثاني عشر



رثاء الأخ



للشاعر عماد الكبيسي

الشاعر عماد أحمد كبيسي من مواليد حماة ٢٥ / ١ / ١٩٥٩ حي الحميدية ويقيم حاليا في المملكة العربية السعودية؛ يقول عن نفسه:

"أحببت الشعر منذ صغري وكنت أشتري من مصرفي دووابن للشعراء وأول ديوان كان لأبو ريشة وكان شقيقي جهجاه مدرس لغة عربية وكان يشجعني على القراءة"

"أول أبيات كتبتها لم أكن أعرف ماهي البحور ولا تفعيلاتها

ما لليالي إذا جئنا نواسيها

تئن من جرحها شوقا لماضيها

ما للمراكب لما أبحرت نسيت

أن المراسي تبكي في شواطيها

لديه حوالي خمسمائة قصيدة لم تنشر وشارك بعدة مهرجانات ومن قصائده التي اشتهر بها وتم تناولها بالدراسة والنقد قصيدة " أنا يا دمشق "

رحيلُ عمرِك أم جوىً لايهْجَعُ   أم إنَّ وعدَك حائرٌ ومضيَّعُ

من أيِّ حُلمٍ يادمشقُ سأبتدي   وأنا وأحلامي أسىً نتجرَّعُ

أنا يادمشقُ قصـــــيدةٌ غزلية   عنوانُها قلبي وأنتِ الأضلُعُ

أنا يادمشقُ مآذن أمـــــوية   والمجدُ في تيجانها يترصَّعُ


للاستماع للقصيدة امسح الرمز

الشاعر والقصيدة: يحاول الشاعر من خلال قصيدته التي نظمها في ذكرى رحيل أخيه الأكبر خالد إظهار الحزن والألم على فراقه، وبيان أهميته وقيمته بالنسبة له وذكر أهم صفاته وخصاله الحميدة مركزا على الكرم والطيبة وحسن الجوار وإغاثة المحتاج، ويلمح في القصيدة إلى أهمية ومكانة الأخ الأكبر في العائلة كونه السند الأول بعد وفاة الأب.

"خالد في ذاكرة الزيتون" [1]

يا دارُ هلْ غابَ المنى يا دارُ

أضحيتِ قفراً والخرابُ يزارُ

كنتَ السلامَ وكنتَ فجرَ حياتنَا

فرحلتَ عنَا والعيونُ قفارُ

قدْ كنتَ زهراً في ربيعِ قلوبنَا

والقلبُ بعدَ رحيلكُمْ ينهارُ

جارَ الزمانُ عليَّ حينَ تركتني

وأحبتي بعدَ النوى قدْ جارُوا

كنَّا كباراً حينَ كنتَ تضمنَا

شبنا ًصغاراً فالردى أقدارُ

ياجودَ من وقفَ الضعيفُ ببابهِ

والجودُ بعدكَ تائهٌ محتارُ

بكتِ الديارُ عليكَ حينَ تركتنَا

(1) صفحة الشاعر على فيسبوك

وبكتْ حماةُ وناحتِ الأمصارُ

أنّتْ نواعيرُ المحبةِ طيفكمْ

حزنَا وطالَ عزاؤهُ الدوارُ

ومسامحٌ طبعُ الكريمِ مسامحٌ

ويداكِ جودٌ والندى إعصارُ

طالتْ ليالي الفقدِ سوّدهَا الكرى

في مقلتيَّ وغابتْ الأقمارُ

يا قدوتي وأنا الذي بعدَ النُوى

قد أُضرمتْ في خافقِي الأشعارُ

عدْ لي شقيقَ الروحِ عدْ لي سيدي

بي من تباريحِ الجوى أنهارُ

ماتتْ حروفي وانتهتْ أشواقها

والحرفُ في وصفِ الحبيبِ يَحارُ

أنا يا رفيقُ الدمعِ قبرٌ متعبُ

وشهورُ عمري كلها آذارُ

حملوكَ لا واللهِ قد حملوا الوفَا

حملوا كريماً فاضَ منه وقارُ

ومشوا بنعشِ المكرماتِ وليتني

كنتُ الترابَ لمن بنعشكَ سارُوا

يا تربةَ الحمراءِ جاءكَ زائرٌ

ما غابَ عن اعتابهِ الزوارُ

بوركتِ فيهِ وبوركَ القبرُ الذي

آوى إليهِ وبوركَ الحفارُ

فارحمهُ يارحمانُ أنتَ المرتجَى

واغفرْ لهُ الزلاتِ يا غفارُ

1 - البنية الفكرية

المقطع الأول: ألم الفراق

يبدأ الشاعر قصيدته بالوقوف على الأطلال غيابياً، ولعل هذه المقدمة الطللية ـعلى قصرهاـ تفصح عن مدرسة الشاعر الكلاسيكية عندما اختار ذكر الديار بعد غياب الأحبة كيف أصبحت موحشة وكئيبة ومهجورة، لكن رغم هذا كل لابد من زيارتها لقيمة من كان يسكنها.

بعد أن استفتح بالوقوف على الأطلال انتقل إلى غرضه مباشرة في رثاء أخيه الذي كان يحبه حباً كبيراً، ويشعر بالسلام بوجوده فقد كان لحضوره قيمة كبيرة مما جعل لرحيله صدمة عظيمة وفراغ كبير أثر بهم أشد الأثر، فجف ماء عيونهم من شدة بكائهم عليه.

أراد الشاعر وصف مكانة أخيه وجمال حضوره الذي كان يمنح حياتهم رونقا وبهجة، فيراه الشاعر بمنزلة الزهور والورود التي تزين خد الربيع، وتبث الروح فيه فأكمل الشاعر شطره الثاني ليخبرنا أنه فقد برحيله البهجة والسرور فانهار قلبه لهذا الحدث المؤلم.

يصور الشاعر نفسه ضعفياً وحيداً متأثراً بفراق أخيه والألم، والفراغ الذي سببه له هذا الفراق، فكأن الحياة طحنته برحاها وتكاثرت عليه المصائب والهموم التي أحاطته من كل جانب ولم تبق له خل أو صديق، وها هو اليوم يشكو من جور القريب قبل البعيد.

يا دارُ هلْ غابَ المنى يا دارُ

أضحيتِ قفراً والخرابُ يزارُ

كنتَ السلامَ وكنتَ فجرَ حياتنَا

فرحلتَ عنَا والعيونُ قفارُ

قدْ كنتَ زهراً في ربيعِ قلوبنَا

والقلبُ بعدَ رحيلكُمْ ينهارُ

جارَ الزمانُ عليَّ حينَ تركتني

وأحبتي بعدَ النوى قدْ جارُوا

المقطع الثاني: ذكريات الماضي

الذكريات هي مادة دسمة يقتات عليها كل شاعر في مراثيه، وغالباً ما يخصص لها مقطعاً أو أكثر من القصيدة، أو تكون أبيات متناثرة في القصيدة، ولعل الشاعر هنا نوّع بين الأمرين فنراه قد عاد بالزمن للحظات كانت فاصلة في مسيرة حياته وشريط ذكرياته، فهو يتذكر لحظات اجتماعهم بأخيه وجو الأخوة والعائلة عندما كان يضمهم ويحتضنهم كونه الأخ الأكبر وسند العائلة، ولكنهم عندما فقدوه شعروا بالعجز وكأنهم كبروا وشابوا فجأة.

ينتقل الشاعر إلى وصف الكرم الذي كان يُعرف به أخيه فيقول إنه كان يعطي السائل ويكرمه، فهو أهل للجود ومصدره ومنبعه على حد قول الشاعر الذي أراد أن يضع القارئ أمام عظمة هذا الرجل فبالغ في الوصف لدرجة أنه أشار لضياع الكرم بعد رحيل أخيه.

ويتابع في وصف أهمية هذا الرجل وقيمته لأهله أولاً فجعل الدار تبكيه، ثم انتقل لمدينته التي أشار إليها صراحة فجعل حماة تبكيه وتندبه ولم يكتف بهذا فقط، بل جعل البكاء عليه حالة عامة انتشرت بين الدول فأراد بهذه المبالغة إيضاح قيمته التي تساوي عنده قيمة الأبطال والرجال العظماء الذين تندبهم وتبكيهم دولاً ومدناً كانوا ذخراً لها.

في البيت الثالث من هذا المقطع انتقل الشاعر من الخاص إلى العام ثم الأكثر عموماً في وصف من بكى على أخيه، ونراه في البيت الذي يليه يخصص مدينته بالذات، فيحدد معالماً تشتهر بها مدينته حماة أثر بها فراقه فجعل صوت النواعير أنينا على فراق أخيه وجعل الدوّار يندبه فيطول عزاؤه بفراقه.

يعود الشاعر إلى وصف خصال أخيه التي يفتخر بها فهو الشخص السهل الطيب الكريم المسامح الذي يشتهر بطباع جميلة كرر الشاعر في وصف بعضها، فبعد أن وصف السماحة عاد للكرم الذي كان قد تحدث عنه قبل بيتين، وأعتقد أنه لم يوفّق هذه المرة في الوصف عندما قال (الندى إعصار) أراد بها غزارة الكرم،

ولكن الإعصار يصحبه الموت والدمار والخراب وسندرس هذه الصورة بشكل أوسع عندما نتحدث عن البنية الفنية للقصيدة.

وفي ختام هذا المقطع يتكلم الشاعر حزنه الشديد بفراق أخيه، وبعده الذي تركه في ظلمة ليال سوداء لا قمر فيها وحيداً لا يستطيع فيها النوم فارتسم سواد آخر على مقلتيه سببه النعاس وقلة النوم حزناً على فراق أخيه.

كنَّا كباراً حينَ كنتَ تضمنَا
شبنا ًصغاراً فالردى أقدارُ
ياجودَ من وقفَ الضعيفُ ببابهِ
والجودُ بعدكَ تائهٌ محتارُ
بكتِ الديارُ عليكَ حينَ تركتنَا
وبكتْ حماةُ وناحتِ الأمصارُ
أَنّتْ نواعيرُ المحبةِ طيفكمْ
حزنَا وطالَ عزاؤهُ الدوارُ
ومسامحٌ طبعُ الكريمِ مسامحٌ
ويداكِ جودٌ والندى إعصارُ
طالتْ ليالي الفقدِ سوّدهَا الكرى
في مقلتيَّ وغابتْ الأقمارُ

المقطع الثالث: دموع وآلام

يبدأ الشاعر مقطعه هذا بإيضاح مكانة أخيه بالنسبه له فهو الأخ الأكبر والقدوة الحسنة، فقد كان لفقده أثر كبير على الجانب العاطفي والنفسي للشاعر الذي فاضت قريحته واشتعلت الملكة الشعرية لديه فأخذ ينظم القصائد والأشعار في رثاء وتأبين أخيه.

في البيت الذي يليه يؤكد الشاعر على ضعفه وقلة حيلته وحزنه الشديد على فراق أخيه، فيطلب منه العودة مبيناً شدة التعلق بأخيه وشدة احترامه له فهو الأخ والسيّد الذي ملك فؤاد أخيه حباً وكرامة، ويعلل

طلبه المستحيل بعودة أخيه بأنه يعاني من الحزن والألم الشديدين بسبب فقده لأخيه الأكبر.

بعد أن أخبرنا بأن موت أخيه أشعل في داخله سيلاً من الأشعار يعود ليعتذر عن عجز هذه الحروف لوصف ما يشعر به، فيصرح بأنها ماتت وانتهت اشواقها، ثم يلتف حول هذا الوصف معللاً ذلك بصعوبة إيجاد المفرادت والحروف التي تصف ذلك فمقدار الحب الذي جمعهم تحار الحروف في وصفه.

وفي نهايه المقطع يصل الشاعر إلى أبعد نقطة من ضعفه وتعبه وحالته الصعبة في حزنه الشديد على فراق أخيه فيقول إنه أمسى جامداً باهتاً كقبر من شدة التعب، وهو لا ينفك يبكي عليه فعيونه تسكب الدموع سيولاً كما يهطل المطر غزيراً في آذار.

يا قدوتي وأنا الذي بعدَ النُوى

قد أُضرمتْ في خافقِي الأشعارُ

عدْ لي شقيقَ الروحِ عدْ لي سيدي

بي من تباريحِ الجوى أنهارُ

ماتتْ حروفي وانتهتْ أشواقها

والحرفُ في وصفِ الحبيبِ يَحارُ

أنا يا رفيقُ الدمعِ قبرٌ متعبُ

وشهورُ عمري كلها آذارُ

المقطع الرابع: مشهد التأبين

يخصص الشاعر المقطع الأخير من قصيدته لوصف مشهد التأبين والدفن مستغلاً مراسم التشييع للتذكير والتأكيد على خصاله الحميدة وصفاته الكريمة، فقد أدرج ثلاث صفات في البيت الأول من المقطع الذي خصصه لوصف التشييع فقد حمل الناس نعشه الذي لم يكن نعشاً بنظر الشاعر، بل هو الوفاء متجسداً به، وهو الكريم أيضاً الذي له هيبة و وقار يعرفها كل من خالطه، وهذه هي المرة الثالثة التي يصف الشاعر أخاه بالكرم، وكأنه يريد أن يأكدها في ذهن القارئ قبل ختام قصيدته.

يستمر الشاعر في إضفاء أفضل الصفات والخصال على أخيه أثناء وصفه للتشييع، فبعد أن حملوا "الوفا، والجود، والوقار" هاهم يمشون بنعش "المكرمات" حيث جمع الشاعر كل المكرمات في شخص أخيه ومن شدة شوقه له يتمنى أن يصير تراباً لمن مشي في نعشه.

ينتقل الشاعر لمخاطبة المقبرة التي دفن فيها في بلدة الحمراء بمدينة حماة السورية منبهاً إياها لزيارة قيّمة من رجل كريم ذو جاه ونسب، وقد دل على ذلك بالشطر الثاني الذي يصف فيه بيته الذي لا يخلوا من الزائرين والضيوف.

يستمر في مخاطبة المقبرة ويدعوا لها بالبركة لضمها نعش أخيه، ثم يدعو لقبره الذي أصبح مسكناً له، وللحفار الذي قام بحفره بالبركة أيضاً، ولعل هذا الأسلوب من الأساليب التقليدية القديمة في الرثاء من العصر الجاهلي حتى يومنا هذا فمنهم من خاطب القبر كقول إبراهيم الموصلي في هذا المعنى: [1]

سلام على القبر الذي لا يجيبنا   ونحن نحيي تربه ونخـــاطبه

ومنهم من دعا بالسقيا كقول النابغة الذبياني يرثي النعمان بن الحارث: [2]

سقى الغيث قبراً بين بصرى وجاسم   بغيث من الوسمي قطر ووابل

وفي ختام مرثيته يتوجه الشاعر إلى الله عز وجل ويبتهل في الدعاء لأخيه بالرحمة والمغفرة عن كل خطأ وزلة، وهنا يصل الشاعر إلى ذروة التسليم بالقضاء والقدر ويندمج بالواقع ويتماشى معه، فبعد أن ندبه ورثاه وطلب منه العودة ها هو يسلم أمره لله ولحقيقة عدم انتفاع الميت من غيره إلا بالدعاء فكان ختام قصيدته مناسباً لمقتضى الحال.

حملوك لا والله قد حملوا الوفا

حملوا كريما فاض منه وقار

ومشوا بنعش المكرمات وليتني

كنت التراب لمن بنعشك ساروا

آوى إليه وبورك الحفار

ياتربة الحمراء جاءك زائر

ما غاب عن اعتابه الزوار

---

(1) عبد المتعال الصعيدي بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، ط 17،مطبعة مكتبة الآداب 8 2

(2) شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مطبعة دار المعارف ص 293

بوركت فيه وبورك القبر الذي

فارحمه يارحمان انت المرتجى

واغفر له الزلات ياغفار

2- البنية الفنية

العنوان:

"خالد في ذاكرة الزيتون" اختار الشاعر الزيتون في عنوان قصيدته دون غيره لخصائص كثيرة يعرف بها الزيتون، ويتميز بها عن غيره فهو من الأشجار دائمة الخضرة والمتجذرة بعمق في الأرض، والمذكورة بالقرآن والمشهورة بكرمها وعطائها زيتاً وزيتوناً، لعل الشاعر أراد من هذا كله تخليد ما تحمله ذاكرته عن أخيه خالد في قصيدة عميقة الجذور كالزيتون يصف فيها أهم خصائلة وصفاته الحسنة والمحمودة.

الألفاظ:

رغم أن الشاعر اختار لقصيدته الأسلوب التقليدي القديم إلا أنه ابتعد عن الألفاظ الغريبة والكلمات المهجورة، وعبّر عن حزنه بألفاظ بسيطة ومباشرة لإيصال حزنه في رثاء أخيه إلى كل قارئ، ونرى الحزن جلياً في مفردات قصيدته (ينهار، بكت، أنّت، حزناً، الكرى، الدمع....)

التراكيب:

اعتمد الشاعر على النفس الطويل في قصيدته لإيصال رسائله كاملة دون نقصان فكانت التراكيب مترابطة بين الأبيات، ومستقلة تقريباً في كل بيت بفكرة وحالة شعورية عبّر الشاعر من خلالها عن حزنه وألمه وشوقه لأخيه في قسم، وتأبينه وتصوير مراسم تشييعه والدعاء له في قسم آخر.

بكت الديار عليك حين تركتنا

وبكت حماة وناحت الأمصار

يا تربة الحمراء جاءك زائر

ما غاب عن اعتابه الزوار

التكوين الجمالي للقصيدة:

نظم الشاعر أبياته على البحر الكامل وجاء حرف الروي راء مضمومة فالقصيدة رائية.

أراد الشاعر لقصيدته أن تعوض نقصاً عانى منه في غربته بعيداً عن داره وأهله فحاول جهده أن يعوّض في قصديته هذا النقص برثاء أخيه، والوقوف على أطلال دياره، واستذكار مدينته، واستحضار الماضي البعيد الجميل الذي كان يجمعه بإخوته في دارهم وبين أحبابهم، فكانت البداية من هذه الدار التي غابت عنها البهجة والحياة بفقد أخيه فناداها مستخدماً أداة النداء (يا) وكأنه يعاتبها ويشكو همومه لها، ويتبع هذا النداء باستعارة فتحت باب التصوير للشاعر عندما شبه الرغبات بالإنسان الذي يغيب أراد بذلك تصوير غياب البهجة بغياب أسبابها التي كان أحدها موت أخيه فقد أصبحت الديار خالية مهجورة، ولكنها مع ذلك عزيزة غالية على الشاعر يتمنى زيارتها لما تحمله من ذكريات جميلة له، والحقيقة أن الوقوف على الأطلال من أركان القصيدة العربية التقليدية القديمة، ولعل الشاعر أراد بهذا المطلع الطللي إبراز مذهبه وتوجهه الشعري؛ ومن المحسنات الأخرى التي استخدمها الشاعر التصريع كما نراه في البيت الأول (دار، يزار).

يادار هل غاب المنى يادار

أضحيت قفرا والخراب يزار

ينتقل الشاعر بعد هذا المطلع الطللي إلى غرضه مباشرة في رثاء أخيه واصفاً إياه بأنه كان يهب السلام والراحة لهم، ولكنهم برحيله بذلوا دموعهم التي انسكبت حزناً عليه فأصبحت عيونهم كأنها صحراء قاحلة لاماء فيها ولا شجر كناية عن شدة الحزن والألم الذي سببه فقدان أخيهم.

كنت السلام وكنت فجر حياتنا

فرحلت عنا والعيون قفار

يستمر الشاعر في تصويره لمكانة أخيه الكبيرة، والمحببة إليهم بأكثر من طريقة وأسلوب فنراه يشبهه بالزهر الذي يمنح الربيع جمالاً ورونقاً، فحين نذكر الربيع لا بد لنا من ربطه بالمروج الخضراء والورود الملونة الجميلة وكذلك يرى الشاعر أخاه بالنسبة لحياتهم، ومن هذه الصور ينتقل إلى أخرى مصوراً أثر فقدانه الذي جعل القلب كبينان كان متماسكاً فانهار بموت أخيه، وفي ذلك كناية عن ألم الفراق وشدة الحزن.

قد كنت زهرا في ربيع قلوبنا

والقلب بعد رحيلكم ينهار

بعد هذا الفراق ينتقل الشاعر لوصف ما أمست عليه حالته فقد أصبح ضعيفا بفراق عضده وأخيه وفقد أحبة كثر كان يربطهم به محبة أخيه ووجوده فتبدلوا وغابوا وتغيروا بعد هذا الرحيل وفي قوله (تركتني) يحاول الشاعر أن يظهر مدى ضعفه بغياب أخيه ومدى عظمة هذا الأخ الذي كان سنداً للعائلة كلها.

جار الزمان علي حين تركتني

وأحبتي بعد النوى قد جاروا

يعود الشاعر إلى ملفات ذاكرته ويحاول نبش الماضي بحثاً عن لحظات جميلة جمعته بأخيه، فيتذكر زيارته واحتضان أخيه له بعد غياب، وفراق وكأنه يستشعر هذه اللحظة وهذا الدفء والحنان الذي تميز به أخيه الأكبر، ويذهب في الشطر الثاني إلى كناية أراد منها تصوير مصائب الدهر التي جعلتهم يشيبون في صغرهم وقبل أوانهم وفي البيت محسن معنوي (طباق إيجابي) استغله الشاعر لتوضيح فصول العمر بطريقته ومن منظوره الخاص (كباراً، صغاراً).

كنا كباراً حين كنت تضمنا

شبنا صغاراً فالردى أقدار

يبدأ الشاعر بوصف الفضائل والشمائل التي يتميز بها أخيه ويبدأها بالكرم، ويركز على هذه الصفة ليجعلها تتوحد مع أخيه وكأن جزء منه إذا غاب عنها اختلت موازينها، ومن هذه النقطة يصور الشاعر أخاه بأنه أبو الكرم مستخدماً الاستعارة فيشبه الجود والكرم بإنسان يضيع ويحتار لفراق شخص، ولعل الشاعر يقصد بهذا تأثر من كان يمدهم أخوه بالمال والمعونة ويساعدهم على قضاء حوائجهم بفقده.

ياجود من وقف الضعيف ببابه

والجود بعدك تائه محتار

يستمر الشاعر في منحى المبالغة في رثاء أخيه ليمنح قداسة وعظمة كبيرة، وكأنه يرثي ملكاً أو عالماً أو غازياً فقدته الأمة، ويتدرج في هذه الصورة من الخاص إلى العام، ومن الضيق إلى الواسع ومن المحدود إلى اللامحدود مستخدما ثلاث استعارات في بيت واحد حيث شبه الديار بإنسان يبكي لرحيل أخيه، وانتقل

من الديار إلى محافظته (حماة) ليوسع بذالك دائرة الحزن والبكاء، ويستطرد في ذلك لتشمل عدداً لا محدوداً من الدول والبلدان التي بكت وناحت عليه.

بكت الديار عليك حين تركتنا

وبكت حماة وناحت الأمصار

إعطاء الجمادات روحاً وتشخيصها ومنحها عواطفَ كانت أداة الشاعر لتصوير مشهد الحزن والكآبة التي خيّمت على بلدته ومحافظته المشهورة بنواعيرها، والتي استعار الأنين من الإنسان ليمنحه للنواعير فيجعلها تشارك في مشهد البكاء والألم على فقدانه رغم هذه النواعير معروفة بمنح البهجة والسرور لكل من رآها، ويضيف إلى مشهد العزاء منطقة في مدينته تعني له الكثير في الذاكرة المشتركة بينهما (الدوار) يخبرنا الشاعر بأن هذا الموقع الجغرافي تأثر بموت أخيه وطاله عزاءه فيه.

أنّت نواعير المحبة طيفكم

حزنا وطال عزاؤه الدوار

يحاول الشاعر تأكيد صفة الكرم في أخيه فيذكّر القارئ بذلك كلما سنحت له الفرصة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فنراه في هذا البيت يقرن صفة الكرم بالسماحة فالأخيرة ملازمة للأولى لا تنفك عنها فكل كريم مسامح وكل مسامح كريم هذا ما يوصلنا له الشطر الأول من البيت، فقد عبر عن ذلك بأسلوب خبري مباشر فينتقل في الشطر الثاني إلى الكناية ليؤكد على صفة الكرم أيضاً (يداك جود) كناية عن الكرم الوفير ويلحقها بصورة أخرى لعله لم يوفّق بالتعبير عنها فقد أراد الكناية عن غزارة الكرم فاستخدم (الإعصار) والإعصار عادة يعبر عن الموت والغضب والدمار ولا يستحب استخدامه للتعبير عن صفة حسنة كما تقدم.

ومسامح طبع الكرام مسامح

ويداك جود والندى إعصار

يكمل الشاعر في مرثيته مصوراً الليالي الطويلة المتعبة التي مر بها بعد فقد أخيه والتى زاد شحوبها وسوادها قلة النوم وكثرة السهر ما أثر على عيون الشاعر الذي بدا عليه الإرهاق والأرق والتعب بسبب بكاءه لأخيه الراحل؛ وبعد أن مهد لسود الليالي بأسلوب خبري مباشر ينتقل إلى الكناية ليعبر عن أثر فقدان الأخ والأحبة عندما قال (غابت الأقمار) كناية عن فقد الأحبة، وقد استطاع بذلك التعبير عن حالته بعد الفراق وعن أهمية أخيه في ذات الوقت بأسلوب معبر، فقد صور لياليه السود وطولها ثم جعلنا نتخيل ظلمة هذه الليالي السوداء وقد غاب عنها القمر فبدت أكثر سواداً وظلمة.

طالت ليالي الفقد سودها الكرى

في مقلتي وغابت الأقمار

يعود الشاعر إلى أخيه مخاطباً إياه بعبارت الإكبار والاحترام اللذان يكنهما له فهو القدوة الحسنة له، وينتقل بعد هذا النداء مباشرة لتوصيف أثر البعد على روحه وحالته الشعورية فقد تفتحت جروحه، وسالت أشعاره معلنة موت أخيه بكل حزن وقد شبه الأشعار بالنار التي تضرم بفعل أحد، ولكن من أضرمها في قلبه هو ذاك الرحيل الموجع لأخيه.

ياقدوتي وأنا الذي بعد النوى

قد أضرمت في خافقي الأشعار

يؤكد الشاعر على ضعفه نفسياً وجسدياً وعاطفياً وحاجته الشديدة لأخيه الذي كان سنداً وملجأ له في الأوقات العصيبة والليالي الحالكة فيخاطبه طالباً منه العودة لفرط حاجته إليه مستخدماً أسلوب الإنشاء الطلبي بصيغة الأمر للدلالة على ذلك، ومعللاً هذا الطلب الملح لما تركه البعد من حزن وأسى وشوق كأنها أنهار غزيرة تجري بين ضفاف ألمه.

عد لي شقيق الروح عد لي سيدي

بي من تباريح الجوى أنهار

بعد أن عبر عن ملكته الشعرية التي أشعلها رحيل أخيه يسارع بالاعتذار عن قِصر هذه الحروف عن تأديه هذا الغرض العظيم في رثاء أخيه مستخدماً استعارة مكنية حيث شبه الحروف بالإنسان الذي يموت ويفنى، للدلالة على عجز أحرفه عن تأبين أخيه كما يجب ويكمل على نفس المنوال، ولكن باستعارة وصورة أخف من الأولى فقد شبه الحرف بالإنسان الذي تصيبه الحيرة في اتخاذ قرار ما، أو اختيار شي ليفعله وكذلك حروفه تتيه في التعبير عن مشاعره وتعجز عن وصف أخيه.

ماتت حروفي وانتهت أشواقها

والحرف في وصف الحبيب يحار

أنا يارفيق الدمع قبر متعب

وشهور عمري كلها آذار

قبل الانتقال إلى مشهد التشييع يخاطب الشاعر أخاه بأداة النداء (يا) مصوراً أخاه برفيق الدمع على سبيل الاستعارة، بعد هذا الخطاب يصور الشاعر نفسه في قمة الألم والتعب والعجز، والحزن مجتمعة فيشبه نفسه بالقبر ثم يصف هذا القبر على جموده ودلالته على النهاية والموت بأنه متعب، ثم ينتقل بعد هذه الصورة الغريبة إلى كناية جميلة عبر من خلالها عن دموعه الغزيرة التي لا تجف وتهطل باستمرار كمطر آذار، ولكن الشاعر يعيش هذا الشعور الحزين فيذرف دموعه طيلة شهور السنة.

يبدأ الشاعر مقطعه الأخير بتصوير الجنازة ومراسم التشييع فيحاول تجسيد كل شيء في هذا المشهد، وجعله محسوساً وقريباً من القارئ فاتجه إلى استخدام الأساليب الخبرية أكثر من الإنشائية ثم يأتي بصورة شعرية جسد فيها الوفاء لينتقله من المجال العقلي للمجال الحسي عندما دمج الوفاء بجسد أخيه المسجى في النعش فيقول "لم يحملوك، بل حملوا الوفاء متجسداً بك" ويتابع في أساليبه الخبرية ليؤكد على صفة الكرم والوقار ليمنح أخيه هالة من القداسة ويحطيه بالخصال الكريمة ليثير تعاطف القارئ.

حملوك لا والله قد حملوا الوفا

حملوا كريما فاض منه وقار

يتابع الشاعر تصويره مشهد التأبين والجنازة فينتقل بالحركة من حمل النعش إلى المشي به، ولكن الشاعر لم ينقل لنا هذا مباشرة، بل استخدم صورة جميلة ليختم بها مرثية أخيه فيجمع كل صفة جميلة، ومستحبة في أخيه فجسد المكرمات جميعها ليحتويها نعش أخيه في استعارة مكنية أحسن الشاعر استخدامها لتأكيد أهمية من يرثيه، يكمل الشاعر بيته بأسلوب إنشائي صيغته التمني ليعبر عن شوقه الكبير لأخيه الذي رحل، واستحالت رؤيته والتواصل معه.

ومشوا بنعش المكرمات وليتني

كنت التراب لمن بنعشك ساروا

في المشهد الأخير يندمج الشاعر مع الواقع فنراه يسخدم جملاً مباشرة بسيطة تكاد تخلو من أي محسنات بلاغية، أو معنوية، أو تصوير، أو خيال فيخاطب مقبرة أخيه مبشرها بوصول أخ كريم ومضياف ومحبوب من الناس آمن الجانب طيب المعشر وصفات كثيرة أخرى نستطيع استنتاجها من عبارة (ما غاب عن أعتابه الزوار).

ياتربة الحمراء جاءك زائر

ما غاب عن أعتابه الزوار

فكثرة الزائرين استخدمها الشعراء للدلالة على الكرم وحسن الضيافة منذ القدم ومن الشواهد على ذلك قول حسان بن ثابت رضي الله عنه وَمن شعره الرائع الْجيد مَا مدح بِهِ بنى جَفْنَة من غَسَّان مُلُوك الشَّام فى كلمة [1]

لله در عِصَابَة نادمتهم ... يَوْمًا بجلق فى الزَّمَان الأول

يغشون حَتَّى مَا تهر كلابهم ... لَا يسْأَلُون عَن السوَاد الْمقبل

فأراد حسان مدحهم بكرمهم العظيم واستقبالهم للضيوف بصورة جميلة فمن عادة الكلاب أن تنبح كل رأت شخصاً غريباً، ولكن هؤلاء القوم لكثرة ضيوفهم تعودت كلابهم وتآلفت على كثرة الضيوف.

يستمر الشاعر في حديثه مع المقبرة التي ضمت جثمان أخيه مخبرا إياها بأن من زارها اليوم شخص مبارك سيباركها ويطيب ثراها ببركته ويخص بالبركة أيضا القبر الذي سيرقد فيه ثم ينتقل إلى الحفار الذي نبش الأرض وجهزها لتحتضن جسد أخيه فيدعوا له بالبركة.

بوركت فيه وبورك القبر الذي

آوى إليه وبورك الحفار

في ختام القصيدة يبتعد الشاعر عن كل أساليب المبالغة والمديح ويتجاهل كل محسنات الكلام ليدعو الله طالباً منه الرحمة والمغفرة لأخيه فهو أهل الرحمة والمغفرة وقد خصص لكل دعاء شطر من بيته الأخير لينهي بذلك قصيدة أراد الشاعر من خلالها تخليد ذكرى أخيه وعرض صفاته المحمودة مع التركيز على الكرم كصفة يشتهر ويعرف بها حاول الشاعر في قصيدته التي نظمها بذكرى وفاة أخيه أن يعبر عن وفاء عظيم واحترام كبير ومشاعر أخرى كثيرة يكنها لأخيه.

فارحمه يارحمان انت المرتجى

واغفر له الزّلات يا غفار

وفيما يلي جدول يمثل استخدام الشاعر للصور البيانية والمحسنات البديعية مع مواضعها.

---

(1) طبقات فحول الشعراء محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي ج1 ص218

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
غاب المنى	استعارة مكنيّة	البيت الأول
العيون قفار	كناية	البيت الثاني
كنت زهرًا	تشبيه بليغ	البيت الثالث
شبنا صغارًا	كناية	البيت الخامس
الجود تائه	استعارة مكنية	البيت السادس
الجود محتار	استعارة مكنية	البيت السادس
بكت الدّيار	استعارة مكنيّة	البيت السابع
بكت حماة	استعارة مكنيّة	البيت السابع
ناحت الأمصار	استعارة مكنيّة	البيت السابع
أنّت النواعير	استعارة مكنيّة	البيت الثامن
يداك جود	كناية	البيت التاسع
غابت الأقمار كناية	كناية	البيت العاشر
أضرمت الأشعار	استعارة مكنيّة	البيت الحادي عشر
شقيق الرّوح	استعارة تصريحية	البيت الثاني عشر
ماتت حروفي	استعارة مكنيّة	البيت الثالث عشر
أنا قبر	تشبيه بليغ	البيت الرابع عشر

المحسنات البديعية	نوعه	موقعه
(دار، يزار)	تصريع	البيت الأول
(كبارًا، صغارًا)	طباق إيجابي	البيت الخامس

الأسلوب	نوعه	موقعه
يا دار	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الأول
يا جود	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت السادس
يا قدوتي	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الحادي عشر
يارفيق الدمع	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الرابع عشر
يا تربة الحمراء	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت السابع عشر
ارحمه – اغفر له	إنشائي طلبي (دعاء)	البيت التاسع عشر
يا غفّار- يا رحمان	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت التاسع عشر

رثاء الوطن

للشاعر أحمد حمّادي الهواس

الشاعر والأديب والإعلامي أحمد الهواس من مواليد دير الزور 1971 يحمل العديد من الشهادات العلمية في مجالات اللغة العربية والدراسات الإسلامية والإعلام وقد حصل على درجة الدكتوراه في الإعلام في جامعة مصر الدولية 2015 برسالة تحمل عنوان "دور الإعلام في توجيه الرأي العام- سورية أنموذجاً".

يقيم في حالياً في ألمانيا ويشغل منصب رئيس تحرير موقع رسالة بوست له الكثير من المقالات الأدبية وشارك في العديد من المقابلات السياسية على أشهر القنوات العربية فهو يعمل كمراسل متعاون مع الجزيرة نت في ألمانيا،وقد شغل عدة مناصب سابقا في مجال الإعلام الذي يعمل به منذ 22 سنة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر (إعداد وتقديم واختيار ضيوف لنحو 800 حلقة لبرامج " قناديل - كتاب الأسبوع - الفصل التالي" على قناة الرافدين منذ 2006 إلى 2014 بالإضافة لإعداد وتقديم وإنتاج برنامجين لقناة سورية الغد "قصة حياة - الحقيقة " وغيرها الكثير)

كتب عدّة أفلام وثائقية، منها خطوات العودة، لقناة الرافدين إخراج إمام الليثي، وبيت أحمد شوقي قناة الحدث العراقية، والياسمين والدم "عن الثورة السورية، إخراج طارق عيسى ".

شاعر وناقد، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية. 2002 ، نشر عشرات القصائد وعدد من الدراسات النقدية ، كتب عن شعري وشعر عدد من الشعراء العرب رسالة دكتوراه للدكتور ولهان الحديثي بعنوان بغداد في الشعر العربي – القاهرة 2009 ، فضلًا عن كتابين في الفكر والسياسة جاهزين للطبع.

لديه مجموعة قصصية مخطوطة منذ 1998 ، ورواية سنة 2000 ، ومجموعة شعرية بعنوان حديث الغرباء كل أعمالي لم تطبع ، نشر له في كتاب قصيدة ياصاحبي في تكريم العلامة الراحل د. جابر قميحة عن مركز الإعلام العربي القاهرة 2010 ، وله أعمال فكرية منشورة مع عدة مؤلفين .

محلل سياسي لعدة وسائل إعلامية.



الشاعر والقصيدة: يشعر الشاعر بشوقه إلى وطنه بعد غياب طويل عنه وغربة دامت سنوات ويتألم ويأسف عما حل بهذا الوطن الجميل الذي يشبه الجنة فأمسى الأهل والأحبة والأصدقاء بين معتقل وشهيد ولاجئ مهجر في طول البلاد وعرضها، فليجأ الشاعر إلى الماضي الجميل ويتحدث عن جمالها وأصالتها قبل أن تطالها أيدي الخراب ويختم القصيدة ببث روح الأمل بمستقبل جميل يتمناه لها.

"الله يا وطني"[1]

ما زلتَ تبكي دياراً عزّ بانيها	عريقةَ الأصلِ لو باحتْ بماضيها
لو أنّها نطقتْ أحجارُها سحرتْ	ألبابَ من عشقوا بهراً أراضيها
عني وعنك صنوفُ الدمعِ أسكبُها	عني وعنك بكاءً في مآسيها
الله يا وطني لو أنّةً صمتتْ	أو أنّها وقفتْ في صدرِ حاديها
لشقّ عنها سكونُ الليل لوعتَها	واسترسلَ الدمعُ غيثاً في مآقيها
في الغوطتين تنامُ الشامُ في دعةٍ	والياسمين تدلى في روابيها
في الفجرِ تبصرُ آياتٍ مصورةً	وفي المساء سماوات تساقيها
وفي الشمال تلاقي بهجةً حلباً	وفي الفراتِ تناجي الديرُ راعيها
كأن كلّ جمال الكونِ مجتمع	في ضفتيك كأنّ الجانَ بانيها
يا جنةَ الله شيطانٌ يدمرها؟	يا جنةَ الله أرزاءٌ (تسافيها)
من جرحنا وطنٌ يشدو بأغنيةٍ	في لحنها رهقٌ سادَ الجوى فيها
هرّتْ عليكَ كلابُ الأرضِ قاطبةً	واستأسدَ الفأرُ غياً في حواريها
يراهنُ الوهمَ في تدميرِ حاضرِها	وينشرُ اليأسَ عمداً في مغانيها

---

(1) صفحة الشاعر على فيسبوك

كأنني وديارَ الأرضِ يا وطني نهدهدُ الشعرَ نوحاً في معانيها

أرواحُ أحبابنا تنسابُ راحلةً وهاجرتْ كطيورٍ عن فيافيها.؟

فهل تراها كعينِ الماءِ مجدبة إن غادرَ الماءُ هطلاً في بواديها؟

لكننا وطنُ العنقاء إنْ نهضتْ ترصعَ الجمرُ دُراً في خوافيها

سيبدع العقلُ أرضاً لا نظيرَ لها ويرفعُ (الله) للعلياء بانيها

1- البنية الفكرية

المقطع الأول: تمجيد الديار

يبدأ الشاعر قصيدته بالبكاء على دياره العظيمة التي لها تاريخ عريق ومجد تليد يفوح من أرجائها وتفاصيلها، ولديها الكثير لتخبر العالم به، فحتى أحجارها لو استطاعت النطق والتعبير لسحرت زائريها بقدمها وعراقتها وأصالتها.

ينتقل الشاعر من تمجيد الديار إلى البكاء عليها فيقول مخاطباً الوطن سأبكي عني وعنك يا وطني بكل أنواع البكاء وبكل أشكال الدموع، فالمأساة كبيرة والمصاب جلل، فما تزال تلك الأنة الموجعة تختلج في صدورنا، ولو أتيح لها الخروج لشقت سكون الليل وهدوءه معلناً عن كمية الألم والحزن ولتحولت إلى غيث من دموع لا ينضب.

ما زلتَ تبكي دياراً عزّ بانيها عريقةَ الأصلِ لو باحتْ بماضيها

لو أنّها نطقتْ أحجارُها سحرتْ ألبابَ من عشقوا بهراً أراضيها

عني وعنك صنوفُ الدمعِ أسكبُها عني وعنك بكاءً في مآسيها

الله يا وطني لو أنّةً صمتتْ أو أنّها وقفتْ في صدرِ حاديها

لشقّ عنها سكونُ الليل لوعتَها واسترسلَ الدمعُ غيثاً في مآقيها

المقطع الثاني: وصف جمال الوطن

يبدأ الشاعر وصف جمال الوطن من العاصمة دمشق ومن غوطتيها تحديداً حيث يصفها بأنها بلد السلام والياسمين، إذا تشتهر الشام بالياسمين وهو جزء من البيت الدمشقي يقول في ذلك نزار قباني.

للياسمين حقوق في منازلنا وقطة البيت تغفو حيث ترتاح

ويكمل الشاعر وصفه للشام لعراقتها وجمالها وأهميتها التاريخية فما تراه من جمال في الصباح يكتمل جماله في المساء، وينتقل من جنوب سوريا إلى شمالها حيث حلب فيصفها بالمدينة ذات البهجة وينتقل بعدها إلى نهر الفرات حيث ترقد مدينته دير الزور تناجي ربها وتحمده على نعمه، ويبقى في مدينته متعجبا من جمالها الساحر وكأنها لم تبن على أيدي بشر، بل على أيدي جان وفي هذا إشارة لأسطورة مدينة النحاس التي بناها الجن لسليمان بن داود عليهما السلام.

في الغوطتين تنامُ الشامُ في دعةٍ والياسمين تدلى في روابيها

في الفجرِ تبصرُ آياتٍ مصورةً وفي المساء سماوات تساقيها

وفي الشمال تلاقي بهجةً حلباً وفي الفراتِ تناجي الديرُ راعيها

كأن كلّ جمال الكونِ مجتمع في ضفتيك كأنّ الجانَ بانيها

المقطع الثالث: قساوة الحاضر ودمار الوطن

يبدأ الشاعر هذا المقطع بوصف سوريا بأنها جنة الله وقد قدم إلى ذلك بأوصاف بعض المحافظات وجمالها وهنا يأسف على بلاده الجميلة بأن يدمرها شيطان (إشارة إلى بشار الأسد رئيس النظام السوري) وينتقل الشاعر إلى وصف المصيبة وأثرها فهذا الوطن مجروح كأغنية ألحانها الحزن والألم، وبعد أن ضعفت هذه البلاد أصبحت فريسة تطمع بها الكلاب وهنا يشير الشاعر إلى الدول التي تدخلت في سوريا طمعاً بمكاسب ونفوذ ويزيد الشاعر من تحقيره للميلشيات التي عاثت خراباً في البلاد واصفاً إياها بالفئران التي تستقوي على الضعفاء فتسأسد عليهم وتجرم بحقهم ومازالت تلك العصابة تراهن على تدمير حاضر سورية وتحاول نشر اليأس والدمار في كل شيء جميل في البلاد

يا جنةَ الله شيطانٌ يدمرها؟ يا جنةَ الله أرزاءٌ (تسافيها)

من جرحنا وطنٌ يشدو بأغنيةٍ في لحنها رهقٌ سادَ الجوى فيها

هرّتْ عليكَ كلابُ الأرضِ قاطبةً واستأسدَ الفأرُ غياً في حواريها

يراهنُ الوهمَ في تدميرِ حاضرِها وينشرُ اليأسَ عمداً في مغانيها

المقطع الرابع: بين الألم والأمل

وفي المقطع الأخير يستعين بالشعر ليبكي وطنه، وكأن أشعاره تحولت إلى نوح وألم وبكاء على بلاده بعد أن فقد الكثير من الأحباب أرواحهم دفعة واحدة، وفي وقت قصير كأن أرواحهم ليست إلا طيوراً حان وقت هجرتها فهاجرت أسراباً أسراباً، فأصبحت البلاد مهجورة خالية كعين الماء في سنين القحط.

وفي البيتين الأخيرين يصر الشاعر على إحياء الأمل، والعزم على ولادة مستقبل مشرق، فيقول نحن كالعنقاء سنحيل الجمر درراً ونعيد بناء ما انهدم وبعقلنا وعلمنا سنبني من جديد وطناً جميلاً لا شبيه له، ومن يقوم بهذه المهمة له درجة عظيمة عند الله عز وجل.

كأنني وديارَ الأرضِ يا وطني	نهدهدُ الشعرَ نوحاً في معانيها
أرواحُ أحبابنا تنسابُ راحلةً	وهاجرتْ كطيورٍ عن فيافيها.؟
فهل تراها كعينِ الماءِ مجدبة	إن غادرَ الماءُ هطلاً في بواديها؟
لكننا وطنُ العنقاء إنْ نهضتْ	ترصعَ الجمرُ دُراً في خوافيها
سيبدع العقلُ أرضاً لا نظيرَ لها	ويرفعُ (الله) للعلياء بانيها

2- البنية الفنية

العنوان :

"الله يا وطني": يحمل عنوان القصيدة ألماً كبيراً وحسرة لكل مهاجر ومغترب عن بلده دون شك، ولكن الشاعر أراد أن يوصل غصّة يشعر بها كل من أجبر على الرحيل، فترك بلاده وداره وأحبته مهجّراً بعد أن قاسى الألم والخوف والفقد والقهر ليترك روحه فيها بينما جسده في أرض الله الواسعة، وعينه على وطنه تراقب أحواله وتذرف الدموع شوقاً وحزناً لما حل به.

الألفاظ:

جاءت ألفاظ القصيدة متنوعة في صعوبتها فنجد فيها ألفاظاً سلسلة بسيطة على القارئ، وأخرى أكثر قوة، ولم يخلُ النص من كلمات صعبة رغم فصاحتها وبلاغتها ولكنها لم تعد مستخدمة كثيراً في الشعر الحديث ما قد يجعلها تبدو غريبة على بعض القراء كقوله: (أرزاءٌ – رهقٌ – هرّتْ)

التراكيب:

اعتمد الشاعر في قصيدته على التنويع في تراكيبه وسخّر عباراته لخدمة المعنى المراد فنراه أحياناً يعتمد على العبارات القصيرة ليمنح كل شطر معنى وفكرة خاصة به

في الفجرِ تبصرُ آياتٍ مصــورةً   وفي المساء سمـــاوات تساقيها

وفي الشمال تلاقي بهجةً حلباً   وفي الفراتِ تناجي الديرُ راعيها

بينما في بعض الأبيات نرى وحدة البيت واستقلاله بمعنى منفرد عن غيره مع ارتباطه بهدف القصيدة العام

كأنني وديارَ الأرضِ يا وطني   نهدهدُ الشعرَ نوحاً في معانيها

وقد يلجأ أحياناً إلى الإطالة لتوضيح معنى عميق وأفكار خلاقة ومشاعر تحتاج لنفس طويل لبثها بين الحروف

الله يا وطـــني لو أنّةً صــمتتْ   أو أنّها وقفتْ في صدرِ حاديها

لشقّ عنها سكونُ الليل لوعتَها   واسترسلَ الدمعُ غيثاً في مآقيها

نلاحظ في قصيدة الشاعر غَلَبة الجمل الفعلية على الاسمية، وقد منحها هذا حركة أكثر فقد اعتمد على الفعل الماضي في تصوير الوطن واستجلاب الذكريات في معظم القصيدة، إلا أنه انتقل في ختام قصيدته إلى المضارع بصيغة المستقبل لينقل من خلاله أمله في غد أفضل وأجمل لوطنه:

سيبدع العقلُ أرضاً لا نظيرَ لها   ويرفعُ (الله) للعلياء بانيها

التكوين الجمالي للقصيدة:

نظم الشاعر قصيدته على وزن البحر البسيط وهو من الأبحر الطويلة، وجاءت القافية مطلقة وحرف الروي هو الهاء.

اعتمد الشاعر في قصيدته على الأسلوب التقليدي للقصيدة العربية فنراه استهلها بالبكاء على الأطلال استهلالاً يمهد به لغرضه الرئيسي في رثاء الوطن، فاستطاع دمج المطلع بالنفس العام للقصيدة فبدأها مخاطبا صديقه (الافتراضي) وكذلك كان الحال عند الشعراء القدامى عند الوقف على الأطلال فقد استهل امرؤ القيس معلقته بطلبه من صديقيه التوقف لبكاء الديار مخاطبا إياهم:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيْبٍ وَمَنْزِلِ   بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وليس شرطاً أن يكون مخاطباً حقيقاً ولكنه أداة لإيصال الحالة الشعورية للقارئ الذي قد يشعر أنه هو

المخاطب إن لامست القصيدة داخله، وعبرت عما يجول في خاطره، فغرض الشاعر هنا رثاء الوطن والبكاء عليه، وفي قوله (ما زلت تبكي) فهو يخاطب المغتربين عموماً ليشاركون البكاء على الديار التي قد صورها بأنها عزيزة كعزة من بناها ولها ماض مجيد وعريق، فعبر عن ذلك من خلال استعارة جميلة شبه فيها البلاد بالإنسان الذي لديه القدرة على البوح والتحدث لتحكي عن ماضيها الجميل، وعلى عادة الشعراء الأوائل في استخدم الشاعر التصريع ليزيد البيت الأول جمالية وإيقاعاً (بانيها - ماضيها).

مازلتَ تبكي دياراً عزّ بانيها   عريقةَ الأصلِ لو باحتْ بماضيها

يتابع الشاعر في وصف وطنه ليخبرنا بأن كل شيء هناك له جماليته الخاصة ورونقه الفريد فحتى الحجارة هناك لها نصيب من السحر والجمال، ويصور الشاعر لنا هذا المشهد من خلال استعارة اعتمد فيها على الاستنطاق ليشبه الحجارة بحسناء عذبة الكلام والمنطق تسحر من يسمعها، وتأخذ عقله كما تفعل هذه الحجارة بعقول من يأتي هذا البلد زائراً، وفي استخدامه للحجارة يقصد جمال البناء وأصالته وقدمه فذكر الجزء وأراد الكل.

لو أنّها نطقتْ أحجارُها سحرتْ   ألبابَ من عشقوا بهراً أراضيها

يكمل الشاعر مشهد الحزن الذي بدأ به قصيدته في رثاء الوطن، والبكاء عليه فيستعين بالكناية ليوضح حجم الحزن والألم الكبيرين فأخذ يبكي ويسكب الدموع عنه وعن وطنه فالدموع هنا كثيرة ومتنوعة كتنوع مآسي هذا الوطن والشاعر ما يزال يذرف كل أنواع الدموع وأشكال البكاء على وطنه الغالي الذي حرم من رؤيته فليس له عزاء إلا دموعه.

عني وعنك صنوفُ الدمعِ أسكبُها   عني وعنك بكاءً في مآسيها

ينتقل الشاعر إلى تنهيدة طويلة يبث من خلالها حسرته على وطنه من خلال مشهد يصوره لنا بأسلوب الاستعارة فجعل الأنة كالإنسان الذي يتحكم بسلوكه ومشاعره فيبثها أحياناً ويكتمها أحياناً أخرى؛ وهنا أراد تصوير هذه الأنة بأنها اختارت الصمت، وفي الشطر الثاني يضيف إليها استعارة أخرى لنفس المشبه لتقف هذه الأنّة في صدر قائلها ليصل بنا إلى تخيل ذلك الشعور حين تقف غصة في صدر أحد منا فيحاول جاهداً كتمانها فلا يستطيع والغصة هنا هي البكاء على الوطن.

ثم يجيب على هذه الافتراضات التي افترضها في البيت الذي يليه مصوراً الحزن والألم الذي يحاول كتمانه نهاراً كيف ستيحول إلى بكاء ولوعة تقض سكون الليل وهدوءه، فتصبح دموعه كغيث منهمر يسيل

في مقلتيه وهنا تشبيه بليغ أحسن الشاعر توظيفه لخدمة المشهد فشبه الدمع بالغيث ولم يذكر وجه الشبه والأداة ليترك الباب مفتوحاً لخيال القارئ في تصور مشهد البكاء المتواصل في هدأة الليل وسكونه.

الله يا وطني لو أنّةً صـــــمتتْ أو أنّها وقفتْ في صدرِ حاديها

لشقّ عنها سكونُ الليل لوعتَها واسترسلَ الدمعُ غيثاً في مآقيها

بعد أن فرغ الشاعر من بكاءه واستبكاءه وبث حزنه ولوعته على وطنه الجريح انتقل إلى وصف جمال الوطن قبل القصف والدمار والتهجير، فبدأ بالشام لما تحمله من إرث حضاري وثقافي وطبيعي على مر العصور ليرسم لوحة جميلة من غوطتي دمشق المعروفة بسحر طبيعتها وجمالها وهدوءها وطيب العيش فيها؛ ما يجعل الشام تنام في أحضانها براحة وطمأنينية وهنا استخدم الشاعر صورة فنية مزدوجة فالشطر كله كناية عن لذه الحياة وطيب العيش في الشام، وقد استخدم الاستعارة أيضا حين شبه الشام بفتاة تنام بسكينة فحذف المشبه وأبقى على شيء من لوازمه وصفاته وهو النوم، ثم أكمل رسم المشهد حين وصف الياسمين المتدلي في روابي دمشق ليوضح في ذلك هوية المدينة المعروفة بـ " دمشق الياسمين" لكثرة ورود الياسمين فيها وحب أهل الشام لهذه الأجواء.

في الغوطتين تنامُ الشامُ في دعةٍ والياسمين تدلى في روابيها

يكمل الشاعر وصفه لمشهد دمشق وغوطتيها فيراها من سحرها، وجمالها كصورة أو لوحة فنية مرسومة باتقان إذا ما رأيتها عند بزوغ الفجر أما في المساء فينهمر المطر ليسيقيها، والشاعر في هذا البيت يحاول نقل صورة جميلة يخزنها في ذاكرته ليبهر بها القارئ ويثير خياله في تصور المشهد في وقتين مختلفين (الفجر والمساء) ومن جمال الطباق هنا أنه ميز كل شطر بصورة وحالة ووقت مختلف للمكان نفسه.

في الفجرِ تبصرُ آياتٍ مصورةً وفي المساء سماوات تساقيها

يسافر الشاعر في وصف وطنه من الجنوب إلى الشمال حيث العاصمة الاقتصادية لسوريا إلى مدينة حلب العريقة والممتدة بحضارتها عبر التاريخ، ويخبرنا أن هذه المدينة هي مصدر للبهجة ولعله يرمز هنا إلى حفاوة الاستقبال وطرافة أهالي حلب وحسن معاشرتهم وجوارهم، ثم ينتقل في الشطر الثاني نحو الشرق إلى مدينته التي يحبها وينتمي إليها، دير الزور المتربعة في أحضان الفرات ليجدها في حالة اتصال

مقدس مع الخالق المبدع لها مستخدماً الاستعارة، فقد شبه الدير بإنسان يناجي ربه فحذف المشبه وأبقى على شيء من صفاته

وفي الشمال تلاقي بهجةً حلباً   وفي الفراتِ تناجي الديرُ راعيها

يبقى الشاعر في مدينته ليمنحها حقها في الوصف وينقل شيء من شوقه من خلال حروفه فالدير عنده أجمل ممالك الأرض وأحسنها، وكأنها جمعت من كل جمال الكون جزء ليجتمع فيها الجمال كله في دير الزور على ضفاف نهر الفرات، لم يكتف الشاعر بهذا الوصف وكأنه يرى نفسه مقصراً بحق مدينته فيأتي بصورة عقلية بديعة الجمال، فلا يمكن لبشر أن يجمع جمال الكون كله في مدينة واحدة فهذا من العجائب ولكن الجان قد تفعل ذلك (كأنّ الجانَ بانيها) كناية عن شدة جمالها وهذه الصورة البديعة هي من الموروث الثقافي لدى الشاعر، فقد ذُكرت حكاية مدينة النحاس البديعة التي بناها الجن للنبي سليمان في بعض كتب الحكايات ومنها كتاب ألف ليلة وليلة تحت مسمى "حكاية مدينة النحاس" وتحديدا في الليلة 563 (*)

كأن كلّ جمال الكونِ مجتمع   في ضفتيك كأنّ الجانَ بانيها

يتجه الشاعر بعد أن وصف جمال وطنه ومدنه خاصة تلك التي زارها وله ذكريات فيها إلى تحقير وذم من كان سببا في خرابها وتدميرها فيصفه بالشيطان كناية عن حجم الأذى والشر فيه الذي يجعله يدمر جنة من جنان الله على أرضه، وفي الشطر الثاني يتابع الشاعر موجه حزنه على وطنه مخاطبا إياه بأسلوب النداء واصفا إياه بالجنة لجماله، ولكن هذه الجنة انهمرت عليها المصائب والويلات.

يا جنةَ الله شيطانٌ يدمرها؟   يا جنةَ الله أرزاءٌ (تساقيها)

ثم يحاول كتمان ما به من مشاعر حزن وألم لكنها تأبى الكتمان، وتتعاضم فالجرح جرح وطن لا جرح جسد فيستعين الشاعر بالاستعارة لرسم هذه الصورة الجميلة فيشبه الوطن بإنسان يغني ويشدو ألحانه، ولكن الألحان هنا حزينة ومتعبة تحمل آلاماً وهموماً كبيرة وشوق قديم لبلد ووطن يعاني الشاعر بفراقه والبعد عنه ويتألم لوعة على ما حل به.

(*) للاطلاع انظر كتاب ألف ليلة وليلة المجلد الثالث ص129 المكتبة السعيدية مصر

من جرحنا وطنٌ يشدو بأغنيةٍ   في لحنها رهقٌ سادَ الجوى فيها

في خضم هذا الألم الكبير على الوطن وما حل به ينتقل الشاعر إلى ذم واستحقار الطامعين في خيراته وأراضيه واصفاً إياهم بالكلاب، ولكثرة الطامعين والمتدخلين في شؤون وطنه جعل العبارة عامة وشاملة (كلابُ الأرضِ قاطبةً) وفي الشطر الثاني يستخدم الشاعر أقسى عبارات الإهانة واصفاً الظالم بالفأر الوضيع الذي يحاول إبراز قوته بالأذى، والفساد الذي ملأ به أرض الوطن، فالشاعر في هذا البيت وجه رسائل استحقار وإهانة للعدو الخارجي المتمثل ببعض الدول التي كانت سبباً في معاناة السوريين وعذاباتهم، وفي الشطر الثاني أهان العدو الداخلي الذي دمر البلاد وقتل المدنيين واعتقلهم وهجّرهم.

هرّتْ عليكَ كلابُ الأرضِ قاطبةً   واستأسدَ الفأرُ غياً في حواريها

يذهب الشاعر إلى تصوير صعوبة الأوضاع والظروف المحيطة ببلاده في صمت عربي وعالمي لما يحدث من جرائم فيها من خلال مشهد يجسد فيه المعنى العقلي ليصبح حسياً عن طريق الاستعارة، فيشبه الوهم بالإنسان الذي يعقل ويراهن فحذف المشبه وأبقى على شيء من صفاته فأصبح هذا الوهم الذي يسكن نفوس أعداء وطنه وشعبه يراهن متأملاً على تدمير حاضرها بعد أن أصبحت بحالة يُرثى لها من دمار وخراب اجتاح مدنها وحواضرها الجميلة البديعة، وفوق كل هذا هناك من يؤذيها بشكل أكبر لينشر اليأس ويقطع الأمل من أمكانية أن تحيا هذه البلاد مرة أخرى.

يراهنُ الوهمَ في تدميرِ حاضرِها   وينشرُ اليأسَ عمداً في مغانيها

يحاول الشاعر قبل ختام قصيدته أن يفصح عن عبراته ودموعه من خلال شعره فهو مجروح بوطنه بعيد عنه حزين لما حل به، فيصور هذه الحالة من خلال خطابه لوطنه بأن العالم يشاركه الحزن والنوح على ذلك الوطن الجميل، ولا سبيل لديه غير الأشعار التي يعبر من خلالها عن ألمه ويبث بين أبياتها حزنه وانكساره.

كأنني وديارَ الأرضِ يا وطني   نهدهدُ الشعرَ نوحاً في معانيها

يكمل الشاعر مشهده الحزين فيصف الأهل والأحباب في صورة تلامس كل مهجر وتعبر عنه حيث تفرقت الجموع وتشتت العوائل بين شهيد ومفقود ومعتقل ومهاجر، وفي بيته هذا يعبر عمن غادرونا ورحلوا عنا إلى غير رجعة في شطره الأول (أرواحُ أحبابنا تنسابُ راحلةً) أما الشطر الثاني فقد شبه فيه ما تبقى من الأحباب في رحلة هجرتهم بالطيور المهاجرة التي تسافر وتبتعد أميالاً عن أرضها في جماعات،

وقد أحسن الشاعر في هذا التشبيه فقد كانت الهجرة جماعية ولأسباب قاهرة كهجرة الطيور التي تسافر كل عام بحثا عن الدفئ والأمان وقوت يومها إلا أن الطيور تعود كل عام إلى مواطنها بينما يبقى المهاجرون بعيدين عن أرضهم وأحبابهم.

أرواحُ أحبابنا تنسابُ راحلةً وهاجرتْ كطيورٍ عن فيافيها.؟

يكمل الشاعر المشهد في البيت الذي يليه واصفاً حال وطنه ومدينته بعد أن غادرها أهلها وهُجِّروا منها من خلال تشبيهه صورة الدار بعد أن رحل عنها الأحبة بعين الماء المقفرة الجدباء لا حياة فيها بعد توقف المطر عنها، فالشاعر هنا مزج الحاضرة بالبادية موضحاً أسباب الهجرة ودواعيها في كل منهما بأسلوب جميل ومعبر زاد من رونقه استخدامه للجناس في كلمتي (الماءِ – الماءُ)

فهل تراها كعينِ الماءِ مجدبة إن غادرَ الماءُ هطلاً في بواديها؟

يستدرك الشاعر نفسه ويستعيد أنفاسه بعد كل هذا الحزن والألم، والمعاناة ليبث الأمل والإرادة والقوة في ختام قصيدته مستنداً في ذلك إلى الموروث الثقافي العالي لديه مشبهاً نهضة البلاد من تحت الرماد كنهضة طائر العنقاء وهو "طائر خُرافيّ زعَم قُدماء المِصْريين أنَّه يُعَمَّر خمسة قرون وبعد أن يحرق نفسه ينبعث من رماده من جديد"[(1)]

لكننا وطنُ العنقاء إنْ نهضتْ ترصعَ الجمرُ دُراً في خوافيها

وفي ختام القصيدة وبعد أن استند على الأساطير في البيت السابق نراه يعتمد على الواقع والمنطق والحقائق التي يحركها ويبنيها العقل، وهذا تأكيد من الشاعر على قوة العلم وأهميته في بناء الحضارات فهذا العقل هو ملجأ المهاجرين وكنزهم عندما يعودوا ليبنوا وطناً لا مثيل له بهمتهم وعلمهم ومن يفعل ذلك سيكافئه الله ويعلي قدره، وسمعته ويزيد فضله على من يأتي بعده.

سيبدع العقلُ أرضاً لا نظيرَ لها ويرفعُ (الله) للعلياء بانيها

---

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة د أحمد مختار عبد الحميد عمر ج2 ص 564

اعتمد الشاعر على الأسلوب الخبري في قصيدته اعتماداً شبه كامل فلم نرصد خلال البحث سوى حالتين لأسلوب إنشائي، وفيما يلي جدول يمثل استخدام الشاعر للصور البيانية والمحسنات البديعية والأساليب مع مواضعها.

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
باحت بماضيها	استعارة مكنية	البيت الأول
نطقت أحجارها	استعارة مكنية	البيت الثاني
صنوف الدمع اسكبها	كناية	البيت الثالث
أنة صمتت – أنة وقفت	استعارة مكنية	البيت الرابع
الدمع غيث	تشبيه بليغ	البيت الخامس
تنام الشام	استعارة مكنية	البيت السادس
تبصر آيات مصورة	كناية	البيت السابع
تناجي الدير	استعارة مكنية	البيت الثامن
كان الجان بانيها	كناية	البيت التاسع
وطن يشدو	استعارة مكنية	البيت الحادي عشر
ساد الجوى	كناية	البيت الحادي عشر
هرت كلاب الأرض	كناية	البيت الثاني عشر
يراهن الوهم	استعارة مكنية	البيت الثالث عشر
هاجرتْ كطيورٍ عن فيافيها	تشبيه تام الأركان	البيت الخامس عشر
لكننا وطنُ العنقاء	كناية	البيت السابع عشر

المحسنات البديعية	نوعه	موقعه
بانيها وماضيها	تصريع	البيت الأول
الفجر والمساء	طباق إيجاب	البيت السابع
الماءِ – الماءُ	جناس	البيت السادس عشر

الأسلوب	نوعه	موقعه
شيطان يدمرها؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت العاشر
هل تراها	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت السادس عشر

رثاء الرموز



للشاعرة نارت حسن الشيخ

الشاعرة نارت حسن الشيخ من مواليد سورية 1977 تعمل مدرّسة للغة العربية في ثانوية البنات للأئمة والخطباء في تركيا إسطنبول

حاصلة على إجازة في اللغة العربي من كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة جامعة حلب 1998

بالإضافة إلى دبلوم في التأهيل التربوي من نفس الجامعة

- شاركت في عدة لقاءات تلفزيونية في قناتي الحوار والرافدين
- شاركت في عدة أمسيات شعرية منها:

- مهرجان الشعر العربي الذي أقامته الجمعية الدولية للشعراء العرب 23/11/ 2018 في جامعة مرمرة
- مهرجان ربيع القوافي 2019 في جامعة مرمرة
- أمسية شعرية في جامعة آيدن 2017


للاستماع للقصيدة امسح الرمز

الشاعرة والقصيدة: يعد عبد الباسط الساروت من أبرز الشخصيات التي لمعت بداية الحراك الشعبي السوري، فقد كان حارس نادي الكرامة الحمصي ومنتخب سوريا، واشتهر بقيادته للمظاهرات والاحتجاجات ضد النظام والتي كانت تطالب بالحرية والكرامة والدولة المدنية وإخراج المعتقلين والمعتقلات من سجون النظام، فقد كان يهتف جنباً إلى جنب مع الفنانة السورية الراحلة فدوى سليمان، بالإضافة إلى توثيقه عشرات الحالات من الاعتداءات ضد المدنيين من جانب قوات النظام اتجه بعد حصار مدينته " البياضة" إلى تشكيل كتيبة للدفاع عن المدينة لتبدأ مرحلة أخرى من حياته انتقل فيها من الثورة السلمية والاحتجاجات إلى الثورة المسلحة، وقد هُجّر هو ومن معه من حمص، فانتقل إلى الشمال السوري وانضم لجيش العزة في ذلك الوقت، وأصيب في أحدى المعارك مع جيش النظام السوري والميلشيات التابعة له شمال حماة، نقل على أثرها إلى تركيا لتلقي العلاج ليفارق الحياة في 8 حزيران 2019 بمدينة الريحانية التركية، وكان لنبأ وفاته أثراً كبيراً على السورين فرثاه عدد كبير من الشعراء في قصائد ملحمية اخترنا منها هذه القصيدة للبحث والدراسة.

"أنشودة الساروت"[(1)]

لا زال مرتدياً عباءة مزنه

طيفاً يصافح بيدراً لم يجنه

في حضنه وطنٌ وحكمة عاشق

ما الحب إلا أن تموت بحضنه

كالبحر يمشي الموت، نتبع خطوه

يا موت خذ أنفاسنا واستثنه

لم يلتفت لكننا نبكي معاً

أسفاه حبل بكائنا لم يثنه

***

أطعم رواة الدهر خبزك طازجاً

(1) صفحة الشاعرة على فيسبوك

فقصائد الساروت حنطة مزنه

لا تنتظر وحياً فلست بحاجة

كي ترتقي نحو السماء لإذنه

فنان هذا الموت، بحة جرحه

أكرمْ وقد عزف الجراح بفنه

(حنا البحر، حنا الغرق، حنا الزهر)

قطفوه قبل أوانه من غصنه

يا أعذب اللهجات صوتك في دمي

وطن أحن لقبلة من جفنه

ظمآنُ إني ما عبرت جحيمه

إلا لأشرب كوثرا من حسنه

فأدور ثم أدوخ ثم كأنني

الصوفيّ حين يذوق خمرة عدنه

وطن أميل على عيون فراته

وأصب شوقي في قرارة دنه

لا نكتفي فيقول: لا... لم يروني

قدح من الشوق الحلال فثنه

أمطر قصيدك لا توفر غيمة

إن شئت فابك شبابه أو غنه

لا تنتق الكلمات فهي أنيقة

في الحالتين لثائر في شأنه

ذرهم يقولوا شاعر متخبط

من حزن فرحته وفرحة حزنه

خيط رفيع بين قافيتين ما

أدراك لحن قد يذوب بلحنه

ما شئت عدّ من السنين سنينه

عمر المجاهد لا يقاس بسنه

يكفيه ما خطت دماء جبينه

من رام أن يصل العلا لم يحنه

1- البنية الفكرية

المقطع الأول: عاشق الوطن

تبدأ الشاعرة رثائها للساروت بوصفه بالطيف الذي يهمي غيثاً على أرض لم يجن قطافها بعد (استخدمت هنا لا لغرض الدعاء أيضا وكأنها تدعو أن يبقى كالغيمة الهاطلة التي تروي ما سيجنيه الثوار بعده).

ثم تضفي الشاعرة على الساروت قداسة وهالة من العظمة فهو كبير ليحضن الوطن بأكمله، وهنا تشير إلى حلم الثورة الذي سار على خطاه الساروت، وفي نفس البيت تضيف صفة أخرى على الساروت، وهذه الصورة جديدة وإبداعية فالمعروف أن العشق يذهب بالعقول ويغير الأفئدة لكنها وصفت الساروت بأن لديه حكمة عاشق تتلخص بالموت بحضن من تحب كما مات الساروت في حضن وطنه.

وفي البيت الذي يليه تصور الموت وكأنه بحر يمشي لتصور هول المصيبة التي حلت بهذا البلد فالموت يمشي ساحقاً كل شيء أمامه، ونحن نتبعه وهنا جاءت الشاعرة بصورة معكوسة فالموت هو يتبع الناس ولكننا من هول المصائب أصبحنا نتبعه، بل ونطلب منه أن يأخذنا من هذا الحياة على أن يستثني الساروت لرمزيته وأهميته للثورة، لكن الموت لم يستجب لطلبنا وبكائنا المستمر والمتواصل

وبكى معنا أيضا على شهيدنا الساروت.

لا زال مرتدياً عباءة مزنه

طيفاً يصافح بيدراً لم يجنه

في حضنه وطنٌ وحكمة عاشق

ما الحب إلا أن تموت بحضنه

كالبحر يمشي الموت، نتبع خطوه

يا موت خذ أنفاسنا واستثنه

لم يلتفت لكننا نبكي معاً

أسفاه حبل بكائنا لم يثنه

المقطع الثاني: موت خاطف لرجل المواقف

تبدأ الشاعرة المقطع الثاني بطلبها من الساروت أن يخبر رواة الشعر بقصائده كما هي، فهي ليست إلا نتاج هذه الغيمة التي أمطرت وهزت الأرض فأنبتت سنابل من قصائد، ثم تخبر الشعراء بأن يبدؤوا برثائهم الساروت دون انتظار وحي الشعر فرجل كهذا لاتحتاج وحيا كي ترثيه، ثم تنتقل إلى فكرة جديدة لتخبرنا أن الساروت هو فنان الموت الذي أحسن اختيار طريقة موته بشكل مشرّف، وتكمل في هذا السياق لتقول أنه عزف جراح الوطن بصوته الذي يحمل بحة الألم والحزن وتقتبس مقطعاً من إحدى أناشيده (حنا البحر ، حنا الغرق ، حنا الزهر).

وهنا يشير إلى المأسي التي مرت على السوريين أثناء هجرتهم وغرقهم في البحر ونحن الزهر أيضاً فتكمل الشاعرة بأن هذا الزهر تقصد الساروت قتلوه قبل أن يزهر ويحين موعد قطافه

أطعم رواة الدهر خبزك طازجاً

فقصائد الساروت حنطة مزنه

لا تنتظر وحياً فلست بحاجة

كي ترتقي نحو السماء لإذنه

فنان هذا الموت، بحة جرحه

أكرمْ وقد عزف الجراح بفنه

(حنا البحر، حنا الغرق ، حنا الزهر)

قطفوه قبل أوانه من غصنه

المقطع الثالث: صوتك وطن يا ساروت

تتحدث الشاعرة في هذا المقطع عن صوت الساروت بشكل خاص وتضفي عليه أجمل الصفات فصوته أعذب صوت وكأنه يسري في عروقها لعذوبته وصوته وطن تحن لتقبيله، وتذهب الشاعرة في وصف صوته إلى أبعد من ذلك فتصف صوته وكأنه نبع كوثر ينسكب من الجنة، وبعد أن شربت الشاعرة

من هذا الكوثر تصف حالها وكأنها فقدت القدرة على التحكم بنفسها، فأصبحت تدور، ثم داخت من الدوران، فأصبحت كالمولوي الصوفي الذي يدور حول نفسه لينتهي بها المطاف في وطنها حيث تسكب أشواقها في أعماق الفرات، والذي يبادلها الشوق أيضاً فلا يكاد يكتفي من هذه الحالة العاطفية، فيطلب المزيد من شراب الشوق الذي لا لبس فيه ولا شبهة فهو حلال لكل مشتاق.

يا أعذب اللهجات صوتك في دمي

وطن أحن لقبلة من جفنه

ظمآنُ إني ما عبرت جحيمه

إلا لأشرب كوثرا من حسنه

المقطع الرابع: رسالة إلى الشعراء

في المقطع الأخير تقوم الشاعرة بحثِّ الشعراء على رثاء السارورت وتقول فلتنهمر تلك القصائد كالغيث ولتبك على شبابه إن شئت ذلك، أو إن شئت فدندن قصائد رثائه في أغنياتك، ولا تعر اهتماماً لانتقاء الكلمات واختيارها ستكون أنيقة ما دامت تتكلم عن ثائر مثله، ولا تلتفت لما يقولونه عنك وعن قصائدك فأنت في حالة عاطفية لا يفهمونها ينتابك شعور بفرحتك بنيله الشهادة ويأسرك الحزن على فراقه في نفس الوقت، هذا الشعور يكاد يكون دقيقاً جداً، ومتداخل كبعض ألحان الغناء لا تكاد تميز بينها، وتختم قصيدتها بحكمة مفادها بإن العمر ليس مقياساً لما يقدمه المرء فهذا المجاهد العشريني قدم الكثير ما لم يقدمه غيره ممن هم أكبر منه ويكفيه مجداً ما تركت دماءه التي سالت في ساحات المعارك في طلب العلا والنصر، ومن يطلب النصر والمجد مخلصاً لن يثن عزيمته شيء.

أمطر قصيدك لا توفر غيمة

إن شئت فابك شبابه أو غنه

لا تنتق الكلمات فهي أنيقة

في الحالتين لثائر في شأنه

ذرهم يقولوا شاعر متخبط

من حزن فرحته وفرحة حزنه

خيط رفيع بين قافيتين ما

أدراك لحن قد يذوب بلحنه

ما شئت عدّ من السنين سنينه

عمر المجاهد لا يقاس بسنه

يكفيه ما خطت دماء جبينه

من رام أن يصل العلا لم يحنه

2- البنية الفنية

العنوان:

"**أنشودة الساروت**": أرادت الشاعرة تخليد ذكرى الساروت بطريقة إبداعية جميلة مستغلة ملامحه وصوته وكلماته، فجاء العنوان مختصراً وشاملاً كل ما ترمي إليه، وكأنها تريد أن تقول إن هذه هي أنشودته ومرثيته والوصية الخالدة التي تركها لقوافل الثائرين من بعده في آن واحد؛ في حين نرى تلميحاً بهذا العنوان أن الدهر يجعلك خالداً بأفعالك وما تتركه من أثر لمن يكمل الدرب بعدك.

الألفاظ:

حدثتنا الشاعرة عن الساروت مستخدمة ضمير "هاء الغائب" في كل أبيات القصيدة باستثناء بيت واحد صرحت باسمه، وكأنها أرادت تشويق القارئ وإثارة خياله عن الشخص الذي تعود إليه هذه الهاء، وتميزت ألفاظ قصيدة " أنشودة الساروت" بأنها كانت كالفسيفساء التي تضم أحجاراً مختلفة الأشكال والألوان لتشكل في النهاية لوحة عظيمة جميلة، فكانت ألفاظ القصيدة تحمل الماء والنار والموت والحياة والحب والخوف في آن واحد مزجت فيه الشاعرة بين كل هذه العناصر المتباينة والمتناقضة في أبياتها، فنراها تجمع بين الجحيم والكوثر والحزن والفرح والبكاء والغناء معا بأسلوب إبداعي جميل:

ظمآنُ إني ما عبرت جحيمه

إلا لأشرب كوثرا من حسنه

أمطر قصيدك لا توفر غيمة

إن شئت فابك شبابه أو غنه

التراكيب:

اعتمدت الشاعرة في قصيدتها على وحدة الأبيات فنراها وضعت في كل بيت فكرة مستقلة بذاتها ومرتبطة بغرض القصيدة في آن واحد يتضح هذا جلياً بعد المقطع الأول، وفي عموم القصيدة التراكيب متوسطة الطول اعتمدت فيها على الجمل الفعلية أكثر من الاسمية مما أعطى القصيدة سمة ملحمية حركية.

أمطر قصيدك لا توفر غيمة

إن شئت فابك شبابه أو غنه

لا تنتق الكلمات فهي أنيقة

في الحالتين لثائر في شأنه

التكوين الجمالي للقصيدة:

تبدأ الشاعر أنشودتها في رثاء الساروت بسيل من الصور والأخيلة لترسم لوحة تجسد فيها الساروت بكلماتها ولحن الساروت وبحة صوته، فتقول إنه كان ولم يزل يتوشح عباءة الغيوم فصار مثل الطيف الذي يلوح من بعيد غير أن هذا الطيف متمسكاً بزرعه الذي لم يحصده وتقصد شاعرتنا نصر الثورة الذي لم يتحقق بعد، نقلت هذا المشهد عن طريق الاستعارات المتقاربة وتجسيد المعنى العقلي ليصبح حسياً فقد جعلت المزن كعباءة يرتديها طيف الساروت، وجعلت البيدر - والذي يمثل هنا نصر الثورة- كإنسان يصافح الساروت الذي أحيته في بيتها ليصبح طيفاً له قدرات تفوق قدرة الإنسان، ومن أهم مواطن الجمال في هذا البيت استخدامها لفظ "لا زال" وختمها البيت بـ "لم يجنهِ" وهذا عصف لغوي بتوارد الحال والنتيجة

بذهن المتلقي، ولم تنس الشاعرة أن ترصع بيتها بجمالية من جماليات البديع فاستخدمت التصريع (مزنه – يجنه) لتكمل بذلك المشهد الجمالي في البيت الأول.

لا زال مرتدياً عباءة مزنه

طيفاً يصافح بيدراً لم يجنه

تنتقل الشاعرة إلى رسم هالة من القداسة والوطنية على شخصية الساروت، فتراه رجلاً جمع في داخله أسمى درجات الحب والحكمة والوطنية، وكأن الوطن ارتمى بحضنه حباً وكرامة وثقة بأنه أهل ليحمل هم الوطن، ثم تنتقل الشاعرة إلى صورة فريدة مبتكرة خالفت فيها المعتاد بأن العشق والهوى يذهب العقل ويرجّح كفة العواطف عليه، وقد اعترف كثير من الشعراء بهذا عن أنفسهم ولا سيما الشعراء العذريين فهذا مجنون ليلى يقول: [1]

قالوا جُنِنْتَ بِمَنْ تَهوى فقلتُ لهم ... العِشْقُ أعظمُ مِمَّا بالمجانينِ

العِشْقُ لا يستفيقُ الدَّهرَ صاحبُه ... وإنَّما يُصْرَع المجنونُ في الحين

وقد قال عنه الفيلسوف اليوناني الشهير سقراط [2]: العشق جنون، وهو ألوان، كما أن الجنون ألوان.

إلا أن الشاعرة ترى أبعد من ذلك فالساروت عاشق حكيم لأنه أحب الوطن فوصل إلى أعلى درجات الحب ليموت بحضن محبوبه

في حضنه وطنٌ وحكمة عاشق   ما الحب إلا أن تموت بحضنه

تستمر الشاعرة في عرض صورها لمشاهد من الخيال الذي انتجه موت الساروت في قصيدتها فتشبه الموت بالبحر العظيم الذي يمشي ولا يستطيع أحد إيقاف موجه، لكن محبي الساروات يتبعون خطاه سائلين هذا الموت بأسلوب نداء وتوسل أن يأخذ أرواحهم ويبقي الساروت لأهميته وقيمته لهم ولوطنه الذي ينتظر منه ومن رفاقه نصر الثورة وتحقيق آمالهم بالحرية والكرامة.

من الأساليب الجمالية التي امتازت بها الشاعرة هي الصور المعكوسة التي تثير الخيال عند القارئ وتحفز فضوله فبعد أن استخدمت صورة العاشق الحكيم في البيت السابق تستخدم صورة الناس الذين

---

(1) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية ص214

(2) مصارع العشاق، جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي،ج1 ص60

يتبعون الموت على عكس الثقافة المنتشرة والمستخدمة في الأشعار التي تصور الموت يلاحق الناس وهم يفرون منه وخير دليل على ذلك قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:[1]

وَمَنْ هابَ أَسْبابَ المَنايَا يَنَلْنَهُ   وَإِنْ يَرْقَ أَسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

أما في صورة الشاعرة فمحبي الساروت هم من يتبعون الموت

كالبحر يمشي الموت، نتبع خطوه

يا موت خذ أنفاسنا واستثنه

تكمل الشاعرة مشهد الموت الذي بدأته في البيت السابق حين شبهت الموت ببحر عظيم يمشي ساحقاً الأرواح في طريقه ولكن محبي الساروت يلحقون بيه مستجدين إبقاءه على قيد الحياة، وقبض أرواحهم بدلاً عنه لكن الموت لم يلتفت أبداً لهذه التوسلات، والطلبات فالأمر قدر من الله، ولكن هذا الموت رغم قسوته على محبي الساروت إلا أنه كان يبكي معهم عليه.

وفي الشطر الثاني تتأسف الشاعرة على عدم تحقيق طلبهم الذي أرادوه متوسلين بالدموع مستنجدين بالبكاء، ولكن كل هذا لم يثن الموت عن تنفيذ مهمته وفي هذا الشطر استخدمت الشاعرة صورة مركبة لوصف المشهد فبعد أن وصف الموت بالبحر استعارت من السفينة الحبل الذي تربط به المرساة لإيقاف السفينة وتثبيتها في البحر، ولكن هذا الحبل المجدل بالبكاء عجز عن إيقاف بحر الموت الذي لم يلتفت للبكاء، ولم تثنه دموع المتوسلين أيضا.

لم يلتفت لكننا نبكي معاً

أسفاه حبل بكائنا لم يثنه

تتجه الشاعرة إلى تخليد ذكرى الساروت وعرض خصاله الحميدة بعد أن يأست من استرداده من بين

يدي الموت فتقول أخبر رواة التاريخ والشعر عن فضائل الساروت ومآثره الكبيرة، وأخلاقه الحميدة التي أثّرت في شعب كامل يرى فيه رمزاً للعطاء والتضحية، وما القصائد الكثيرة في رثائه إلا ثمار ما حصده قيم وأخلاق، عبرت الشاعرة عن هذه الصورة بأسلوب بديع حيث قدمت الطعام، والخبز على مادته

(1) كتاب مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي أحمد قبش دار الرشيد دمشق ط3 الصفحة 484

الأساسية التي يصنع منها وهي الحنطة تأكيداً على حتمية أن يحصل الإنسان ما يزرعه من خير في الناس، وتأكيداً على أخلاق الساروت العالية وعطائه الكبير.

أطعم رواة الدهر خبزك طازجاً

فقصائد الساروت حنطة مزنه

توجه بعد ذلك خطابها للشعراء الذين سيرثون الساروت بأن يباشروا بقصائدهم دون انتظار وحي الشعر فرجل كهذا لا تحتاج لإذن كي ترتقي بقصيدة في رثائه، وفي هذا البيت أكثر من مدلول لعل الشاعرة أرادته فالأول أن الساروت ترتقي القصائد برثاءه كونه مات شهيداً في سبيل الله، والثاني أنه من عامة الشعب فهو متواضع وبسيط وليس من الملوك التي يخاف الشعراء أن يخطئوا أو يقصروا بمدحهم، والثالث أنه جميل كيفما كتبت عنه ويستحق كل ما تصفه به من خصال.

لا تنتظر وحياً فلست بحاجة

كي ترتقي نحو السماء لإذنه

تنتقل الشاعرة إلى مشهد مبتكر عناصره الساروت والموت فقد جعلت الموت من الأشياء التي يستطيع الإنسان تنفيذها باحترافية وإتقان، فكأن الساروت قد وصل إلى أعلى مراحل الإتقان وهي أن يكون فناناً بما يفعله وقد اختار الساروت أن يموت شهيداً وهذا أقصى ما قد يحققه رجل فضّل الموت بعز في سبيل هدف سامٍ، تكمل الشاعرة ملمّحة لميّزة الساروت مصورة أن البحة التي في صوته هي بحة الجراح التي يتقاسمها مع وطنه الذي عم الموت والدمار مدنه، وفي الشطر الثاني تصور جانباً من شخصية الساروت الذي كان ينشد أغاني الثورة والحماس بصوته الذي أوصل من خلاله جراح وطنه.

فنان هذا الموت، بحة جرحه

أكرمْ وقد عزف الجراح بفنه

تقتبس الشاعرة إحدى مقاطع أناشيد الثورة الحماسية والتي غناها الساروت باللهجة العاميّة بعد تهجيره من مدينته حمص إلى الشمال السوري، والتي يعبر من خلالها عن آماله وتطلعاتها بالحرية والكرامة والنصر رغم الخذلان والمصاعب والتحديات (حنا البحر، حنا الغرق، حنا الزهر) فكلمة (حِنّا) هنا يقابلها باللغة

العربية الفصحى نحن، وهنا مجموهة من التشبيهات البليغة التي اختزل فيها الشاعر التحديات والخيبات والآمال.

تكمل الشاعرة الشطر الثاني وقد ركزت على التشبيه البليغ الأخير الذي اقتبسته من قول الشهيد (حِنّا الزهر) وتعني نحن الزهر، وفي هذا دلالة على بداية الربيع وتحقيق الأحلام، ولكن الشاعرة بنت عليه استعارتها فشبهت الساروت الذي دلت عليه هاء الغائب في قولها قطفوه بالوردة الجميلة التي بدأت تتفتح، وفي هذا تلميح على أنه مات شاباً أيضاً فتؤكد ذلك بقولها (قبل أوانه).

(حنا البحر، حنا الغرق، حنا الزهر)

قطفوه قبل أوانه من غصنه

تعود الشاعرة إلى وصف صوت الساروت مستخدمة أداة النداء (يا) والمنادى أسلوب تفضيل (أعذب اللهجات) فكأنها تريد أن تجمع بين جمال الصوت ودماثة اللهجة التي تعتبرها أجمل اللهجات، فقد كان الساروت ينشد بلهجة سورية لطيفة يفهمها الجميع، تكمل الشاعرة وصفها لصوته وصبغه بقداسة وطنية استخدمت فيها تشبيها بليغاً (صوتك وطن)، وأضافت أن هذا الصوت عذب وجميل لدرجة أنه يجري في دمائها، وختمت البيت بمشهد من الإجلال والإكبار لهذا الصوت الذي يشبه الوطن فتشعر الشاعرة بالشوق والحنين لتقبيل هذا الوطن من جفنه وقبلة الجفن دلالة على قدم العلاقة وقوة الرابط.

يا أعذب اللهجات صوتك في دمي

وطن أحن لقبلة من جفنه

تكمل الشاعرة في وصفها لهذا الوطن عبر مشهد سريالي تصور فيه نفسها أنها ظمآنة وتشعر بالعطش الشديد، ورغم ذلك تعبر الجحيم المتمثل هنا بالمصائب والشدائد التي لاقاها السوريون من تهجير وتعذيب ودمار وقصف وموت خلال الحرب، وكل ما حلموا به هو حياة كريمة في وطنهم، فهي تشبه ويلات الحروب بالجحيم وتشبيه الوطن بالجنة التي يروي كوثرها عطش الجميع لما تصبوا أنفسهم وتتوق أرواحهم.

ظمآنُ إني ما عبرت جحيمه

إلا لأشرب كوثرا من حسنه

تتابع الشاعرة في وصفها لهذا المشهد فترى نفسها بعد ارتشفت من كوثر الوطن وطيب مائه تدور وتدوخ من الفرحة والانتشاء بعذوبته، فهي هنا في قمة السعادة والتي بسببها فقدت سيطرتها على حواسها وجسدها، ثم تشبه نفسها بالصوفي حين يرقص المولوية، فنراه يدور حول نفسه منتشيا وكأنه قد غادر عالمنا إلى عالم آخر لا يشبهه فما يزال منتشياً يدور حول نفسه من فرط السعادة كأن جسده على الأرض وروحه في جنة عدن تحتسي من خمرها.

فأدور ثم أدوخ ثم كأنني

الصوفيّ حين يذوق خمرة عينه

تتجه الشاعرة إلى مسقط رأسها وأرضها على ضفاف الفرات عابرة نحوه بصورة فنية جاعلة الفرات كإنسان له عيون فتراه ويراها لتذهب إليه مشتاقة، وتسكب أشواقها ومشاعرها في أعماق الفرات، والحقيقة أن الشاعرة نجحت في أنسنة الطبيعة فمنحت نهر الفرات عيوناً كي يراها ثم جعلت الشوق كالخمر يسكب ويصب في الكؤوس، وهي بذلك تحضّر لمشهد اللُقيا الذي تكملة في البيت الذي يليه، فبعد أن سكبت أشواقها في وطنها لم تكتفي أبداً ويرد عليها الوطن بأنه لم يرتو أبداً بكأس واحدة من الأشواق، والشاعرة هنا تستخدم التصوير والاستعارة لتجعل الشوق كالخمر فحذفت الخمر وأبقت على شيء من لوازمه وهو القدح، وفي حديثها عن جلوسها مع الوطن وارتشاف الشوق، ثم رد الوطن عليها بأنه لم يكتف بكأس واحدة ويطلب أخرى نجد أن الشاعرة تخاطب الوطن كما تخاطب فتاة حبيبها في جلسة شرب وانتشاء، وانتقال إلى عالم آخر من المشاعر ولكنها أكّدت لفظاً في الشطر الثاني بأن هذا النوع من الخمور حلال.

وطن أميل على عيون فراته

وأصب شوقي في قرارة دنه

لا نكتفي فيقول: لا... لم يروني

قدح من الشوق الحلال فثنه

تنتقل الشاعرة في المقطع الأخير من القصيدة إلى توجيه رسالة للشعراء تطلب منهم ألا يوفروا جهداً ليكتبوا لهذا البطل مستخدمة لذلك صورة جميلة حيث بدأت بفعل أمر تطلب فيه أن يمطر الشعراء قصائدهم في وصفه ومدحه ورثاءه، ثم جاءت باستعارة تصريحية شبهت فيها القصيدة بالغيمة حذفت

المشبه وصرحت بلفظ المشبه به، ثم انتقلت في الشطر الثاني لتجعل الخيار مفتوحاً للشعراء في تناول قضية الساروت فإن أرادوا بكوا شبابه أو تغنوا ببطولاته وفرحوا بارتقائه شهيداً.

أمطر قصيدك لا توفر غيمة

إن شئت فابك شبابه أو غنه

تكمل الشاعر خطابها لزملائها بأن يكتبوا ما جادت به قريحتهم ونقشت أقلامهم ورضيت نفوسهم دون البحث عن التنميق والتزيين والزركشة في الألفاظ والتعابير، فهي لا تتناسب مع موقف كهذا ومع رجل كهذا، وتخبرهم بأن كل شيء يقال فيه سيكون أنيقاً وجميلاً ومناسباً لهذا الثائر الشهم ذو الشأن العظيم الذي تنطبق عليه كل الصفات الجميلة والخصال الحميدة.

لا تنتق الكلمات فهي أنيقة

في الحالتين لثائر في شأنه

تستمر الشاعرة في دفاعها عن خطابها الذي وجهته للشعراء بأن يرثوا الساروت ولا يوفروا جهدهم ومداد أقلامهم، وأكدت على أن القصائد ستكون جميلة فيه كيفما كانت، وأخبرتهم أن يبكوا شبابه أو يفرحوا لارتقائه شهيداً، وها هي الآن تقول دعهم يقولوا عنك ما يشاؤون أيها الشاعر، وليقولوا شاعر متقلب بين الفرح والحزن، فأرادت الشاعرة وصف هذه الحالة من تخبط المشاعر بين الحزن على هذا الشاب الراحل والفرح على أنه ارتقى شهيدا؛ وهذا طباق لفظي أيضاً استخدمته الشاعرة لوصف وجهة نظرها (فرحته – حزنه).

ذرهم يقولوا شاعر متخبط

من حزن فرحته وفرحة حزنه

تخبرنا الشاعرة في البيت الذي يليه أن الفرق في وصف هذه الحالة الشعورية سواء بدأت قافيتك برثاءه والبكاء عليه، أو زفّه شهيداً هو فرق بسيط جداً ودقيق جداً كخيط رفيع، بل أن هذه المشاعر تذوب وتمتزج في بعضها كما الكلمات والأبيات في القصيدة واللحن في الأنشودة؛ وفي قولها ما أدراك: استفهام إنكاري غرضه بلاغة الإخبار.

خيط رفيع بين قافيتين ما

أدراك لحن قد يذوب بلحنه

تختم قصيدتها برثاء الساروت بوصفه بالمجاهد، وهو وصف عظيم ولقب مقدس يمنح لمن يدافع عن دينه ووطنه، وتخبرنا بحكمة مفادها أن عمر المجاهد لا يقاس بالسنين، بل يقاس بالتضحيات التي قدمها في سبيل هدفه وقضيته التي يحارب من أجلها، وفي هذا البيت تلميح لعمرِ الساروت الذي مات في ريعان شبابه.

ما شئت عدّ من السنين سنينه

عمر المجاهد لا يقاس بسنه

في البيت الأخير من القصيدة تحاول الشاعرة ترك انطباع أخير لدى القارئ مفاده "يكفيه شرفاً أن دماء جبينه قد كتبت المجد والشموخ فمن أراد أن يصل إلى السمو والرفعة لا يحنِ جبينه أبداً"، وقد أحسنت الشاعرة في الصورة التي استخدمتها في البيت الأخير فقد شبهت دماء جبينه بالأقلام وحذفت المشبه وأبقت على شيء من صفاته ولوزمه وهو الخط في استعارة مكنية أنهت بها مرثية جميلة لشاب خرج بصوته ينشد أحلامه في العيش بأمان وحرية في وطنه فمات على الجبهات قبل أن يتحقق حلمه.

يكفيه ما خطت دماء جبينه

من رام أن يصل العلا لم يحنه

وفيما يلي جدول يمثل استخدام الشاعرة للصور البيانية والمحسنات البديعية والأساليب مع مواضعها:

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
عباءة مزنه	استعارة مكنية	البيت الأول
كالبحر يمشي الموت	تشبيه تام الأركان	البيت الثالث
حبل بكائنا	استعارة مكنية	البيت الثالث
أطعم رواة الدهر خبزك طازجا	كناية	البيت الخامس

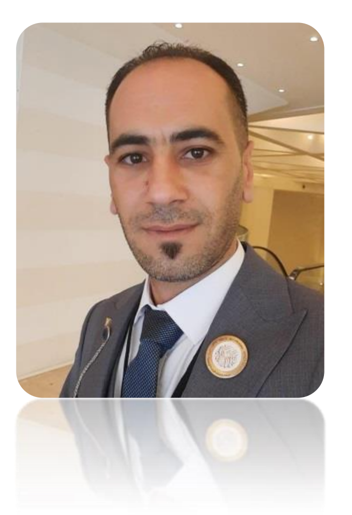
فنان هذا الموت	تشبيه بليغ	البيت السابع
بحة جرحه	استعارة تصريحية	البيت السابع
قطفوه من غصنه	استعارة مكنية	البيت الثامن
صوتك وطن	تشبيه بليغ	البيت التاسع
فأدور ثم أدوخ ثم كأنني الصوفيّ حين يذوق خمرة عينه	تشبيه تمثيلي	البيت الحادي عشر
أصب شوقي	استعارة مكنية	البيت الثاني عشر
قدح من الشوق	استعارة مكنية	البيت الثالث عشر
لا توفر غيمة	استعارة تصريحية	البيت الرابع عشر
خطت دماء جبينه	استعارة مكنية	البيت التاسع عشر

المحسنات البديعية	نوعه	موقعه
مزنه – لم يجنه	تصريع	البيت الأول
فرحته حزنه	طباق إيجاب	البيت السادس عشر

الأسلوب	نوعه	موقعه
لم يجنه	أسلوب إنشائي نوعه نفي	البيت الأول
لم يلتفت - لم يثنه	أسلوب إنشائي نوعه نفي	البيت الرابع
أطعم	أسلوب إنشائي نوعه أمر	البيت الخامس
لا تنتظر	أسلوب إنشائي نوعه نهي	البيت السادس
يا أعذب اللهجات	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت التاسع
لا نكتفي - لم يروني	أسلوب إنشائي نوعه نفي	البيت الثالث عشر
لا توفر غيمة	أسلوب إنشائي نوعه نهي	البيت الرابع عشر

أمطر قصيدك – أبك – غنّه	أسلوب إنشائي نوعه أمر	البيت الرابع عشر
لا تنتقِ	أسلوب إنشائي نوعه نهي	البيت الخامس عشر
ذرهم	أسلوب إنشائي نوعه أمر	البيت السادس عشر
ما أدراك	أسلوب إنشائي استفاهم إنكاري غرضه بلاغة الإخبار	البيت السابع عشر
عدّ	أسلوب إنشائي نوعه أمر	البيت الثامن عشر
لم يحنه	أسلوب إنشائي نوعه نفي	البيت التاسع عشر

رثاء الصديق



الشاعر خالد المحيميد

خالد المحيميد هو شاعر سوري من مواليد محافظة حماة _ مدينة حلفايا 1986يقيم في تركيا

خريج معهد المراقبين الفنيين في حماة ودرس اللغة الإنجليزية في جامعة البعث بحمص ولم يتخرج بسبب الحرب

يشغل منصب المدير الإداري في الجمعية الدولية للشعراء العرب وشارك في تنظيم عدد من الفعاليات الشعرية الكبرى في تركيا

له ديوان شعري صادر عن دار موزاييك للدراسات والنشر بعنوان " خارج أسوار الوقت"

من رواد موسوعة الشعراء الألف التاريخية في النخبة الثقافية (شعراء الشام)

من رواد موقع " القصيدة دوت كوم" الأضخم عربياً.

نشرت له العديد من القصائد في غير مجلة عربية وترجمت بعض قصائده إلى اللغة التركية.


للاستماع للقصيدة امسح الرمز

الشاعر والقصيدة: يعبر الشاعر من خلال قصيدته عن أهمية الصديق الصدوق في حياتنا، ويصور أثر فقده مستغلاً هذه العلاقة التي تربطه مع صديقه للحديث عن صفاه الحميدة وخصاله الطيبة، وعرّج على وطنه وما حل به من دمار وخراب، وما لاقاه من تخاذل في دعم قضيته المحقة والوقوف بجانبه فكانت قصيدة تقطر ألماً وحزناً.

" يا......"(1)

هل خانَكَ الصمتُ

أَمْ أودَتْ بكَ الخُطَبُ

أَمْ أنَّها تَعِبَتْ مِنْ حَمْلِكَ الرُّكَبُ

؟

وهَلْ رحلتَ عنِ الأضواءِ يا قمراً

نِيابةً عن بلادٍ هَدَّها التَّعَبُ

؟

يا أيُّها الجَبلُ الجوديُّ

كيفَ لهُ

أنْ يغمُرَ السيلُ طوداً دونَهُ السُّحبُ

؟

قُلْ لي ....

أَجِبْني ....

فِداكَ العُمرُ يا ذَهَباً

---

(1) ديوان خارج أسوار الوقت، خالد المحيميد، دار موزاييك، إسطنبول،ط1 ص 58-62

كلُّ الأحبَّةِ لمَّا عافَني ذَهَبوا

قُلْ لي بِربّكَ

كيفَ الأرضُ قَدْ وَسِعَتْ

ما سطَّرَتْهُ جروحٌ نزفُها رُتَبُ

؟

وهَلْ ...؟

وهَلْ ...؟

ألفُ (هَلْ) في داخلي اشتَعَلَتْ

ما أضعفَ الردَّ إنْ لمْ يَشفَعِ السَّبَبُ

يا صاحبيْ

أَعجَبُ الأشياءِ أبهَمُها

إنْ يُعْرَفِ السِّرُّ فيها يَبطُلِ العَجَبُ

كُنَّا قريبَينِ حَدَّ الاتِّحادِ بنا

كأنَّ ما بَينَنا _ من صِدْقِنا _ عَصَبُ

كُنَّا لِفَرطِ حَياءٍ أنتَ مَنهَلُهُ

إذا رأَتْنا بناتُ الحَيِّ

نَحتَجِبُ

نُطَرِّزُ الحُلْمَ سَطراً في دفاترِنا

ونَنهَزُ الفجرَ حتى يهطُلَ الرُّطبُ

وكانتِ الريحُ تَخشى من مَعاوِلِنا

إذا لَمَعْنَ على الأكتافِ

تنسَحِبُ

يا أيُّها الماءُ

كُنتَ الأمسَ في نُسُغي

ما بالُكَ اليومَ من عينَيَّ تنسَكِبُ

؟

يا أيُّها النَفَسُ المَسروقُ من رِئَتي

أيغلِبُ النارَ قلبٌ درعُهُ خَشَبُ

؟

تركتَني غارقاً في رَمْلِ أسئِلَتي

والغيثُ عنْ أوجُهِ الإدراكِ مُحتَجِبُ

أُفتِّشُ الأمسَ عن ذِكراكَ

مُنكَسِراً

وكلَّما قُلتُ أدنو منكَ أغتَرِبُ

يا راحِلاً والربيعُ الغَضُّ في يَدِهِ

على بلادٍ رعاها القَحْطُ ينتَحِبُ

باللهِ

كيفَ لحَرْفي أنْ يُغيثَكَ ...؟

قُلْ ...

وفاقدُ الشيءِ ـ يا محبوبُ ـ

لا يَهَبُ

كرومُ شِعريَ

لو أرثيكَ خاويةٌ على السّطورِ

فأنَّى يُعصَرُ العِنَبُ؟؟؟؟

1- البنية الفكرية

المقطع الأول: صدمة الخذلان

بنى الشاعر قصيدته على أساس خطاب يوجهه الشاعر إلى صديقه المقرب يعرض من خلاله نظرته للأحداث التي تدور في بلاده، والحرب التي أنهكت كل شيء، والشعب الذي عانى من خذلان القريب والبعيد، فنرى الشاعر يحمِّل وزر موت صديقه إلى الصمت العربي تجاه قضيته التي اكتفى فيها بعض القادة ممن كان ينتظر عونهم بالخطب الرنانة والتنديد، والاستنكار للمذابح والدماء التي تراق في سوريا، ثم يكمل الشاعر حواره مع صديقه "الشهيد" معتمداً على طرح الأسئلة واستنباط الإجابات، فيمسي الشهيد بنظره قمراً استأثر بالغياب والخفوت ليبقى الوطن الذي أتعبته الأسلحة وهدمت بنيانه حياً شامخاً في قابل الأيام.

هل خانَكَ الصمتُ

أَمْ أودَتْ بكَ الخُطَبُ

أَمْ أَنَّها تَعِبَتْ مِنْ حَمْلِكَ الرُّكَبُ؟

وهَلْ رحلتَ عنِ الأضواءِ يا قمراً

نِيابةً عن بلادٍ هَدَّها التَّعَبُ؟

المقطع الثاني: ألم الفقد

انتقل الشاعر بعد توصيف صدمة الخذلان إلى تأبين صديقه وعرض خصاله الطيبة عن طريق سيل من التساؤلات، فنراه يتساءل كيف لجبل شامخ عزة وأنفة يقصده الناس طالبين عونه في ضيقهم من سيل الحياة وهمومها أن يغمره سيل الموت، وفي هذا استحضار للطوفان العظيم في قصة النبي نوح عليه السلام بعد

أن استوت السفينة على جبل الجودي في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [1]

ويكمل الشاعر استفهامه بإصرار ليتبعه بجملة فداك العمر معبراً عن درجة قربه ومكانته في نفسه فهو صاحب المعدن الأصيل الذي فقد برحيله أصحاباً وأحباباً لا حصر لهم، ثم يتابع الشاعر استنطاق صديقه المتوفى ويصرح بذلك فيسأله بشكل مباشر وكأنه أمامه متعجبا كيف اتسع ضيق القبر لمقامه الرفيع وجاهه العظيم بين الناس وجروحه التي هي جروح وطن لا فرد.

تتوالى الأسئلة وتهجم كأنها سهام مشتعلة تؤرق الشاعر وتقلقه، فيبحث لها عن إجابة ولكن أصعب الأسئلة تلك التي لا نجد لها مبرراً أو جواباً يشفي ويغني، وهنا نرى الشاعر دخل في دوامة صراع مع الذات يحاول الخروج منها دون جدوى.

ونراه يبرر لذلك من خلال البيت الذي يليه موحياً أن هذا الصراع الداخلي الذي يولد أسئلة مريبة ولا إجابة منطقية لها إنما هي تخفي وراءها سرا وسببا كامنا وراءها فإن عرف سببها بطل التعجب منها وفي هذا البيت استند الشاعر إلى خلفيته الثقافية وضمَّن بيته المثل المعروف (إن عرف السبب بطل العجب).

يا أيُّها الجَبلُ الجوديُّ

كيفَ لهُ

أنْ يغمُرَ السيلُ طوداً دونَهُ السُّحبُ

؟

قُلْ لي ....

أَجِبْني ....

فِداكَ العُمرُ يا ذَهَباً

كلُّ الأحبَّةِ لمَّا عافَني ذَهَبوا

قُلْ لي بِربِّكَ

كيفَ الأرضُ قَدْ وَسِعَتْ

ما سطَّرَتْهُ جروحٌ نزفُها رُتَبُ

؟

(1) سورة هود الآية 44

وهَلْ ...؟

وهَلْ ...؟

ألفُ (هَلْ) في داخلي اشتَعَلَتْ

ما أضعفَ الردَّ إنْ لمْ يَشفَعِ السَّبَبُ

يا صاحبيْ

أَعجَبُ الأشياءِ أبهَمُها

إنْ يُعْرَفِ السِّرُّ فيها يَبطُلِ العَجَبُ

المقطع الثالث: رفيق العمر

في المقطع الثالث يبتعد الشاعر عن نفس القصيدة العام القائم على التساؤل واستنطاق صديقه، ويتجه إلى الذكريات البعيدة التي قضاها مع رفيق دربه وصديق شبابه، ويشير أنهما كانا متلازمين لا يفترقان وكأن الرابط بينهما قرابة وأخوّة، ثم يكمل سيل ذكرياته مستفيداً منها في تثبيت الخصال الجميلة لصديقه عند القارئ فهما (الشاعر وصاحبه) كانا يتمتعان بالحياء وغض الطرف، ولكن الصديق كان أساس هذا الحياء ومنهله، فكانا يغضان طرفهما عند رؤية فتيات الحي مقبلات نحوهما عفة وحياء، وهذه الصفة والخصلة كانت موضع فخر للشعراء منذ الجاهلية وقد افتخر عنترة العبسي فيها بأنه فتى ماجد لا يتبع هواه.[1]

وَأَغَضُّ طَرفي ما بَدَت لي جارَتي حَتّى يُواري جارَتي مَأواها

إِنّي اِمرُؤٌ سَمحُ الخَليقَةِ ماجِدٌ لا أُتبِعُ النَفسَ اللَجوجَ هَواها

ينتقل الشاعر في وصف خصال صديقه من الحياء إلى المثابرة والجد في تحقيق الهدف معتمداً في ذلك على إشراك الصفات بينهما

بعد أن أكد في بداية المقطع أنهما كانا متلازمان لا يفترقان، وهذا يعني اشتراكهما في الخصال والميول والطباع فكانا يخططان لمستقبليهما، ويدونان ذلك في دفاترهما ويصلان الليل بالنهار لتحقيق مبتغاهما، وجني ثمار تعبهما بعد ليالي السهر في الدراسة والعمل.

---

(1) ديوان عنترة بن شداد، تحقيق المولوي، ص 308

وفي هذا البيت استند الشاعر إلى قصة مريم عليها السلام حين أتاها المخاض فهزت النخلة ليتساقط عليها الرطب ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾. [1]

فاستبدل الفعل (هز) بـ ننهز وتساقط الرطب بهطوله، وفي نهاية المقطع يؤكد الشاعر على نجاحهما وتحقيق مبتغاهما بالجد والإصرار والتعب رغم الصعوبات التي ذللوها بإرادتهم الصلبة وسعيهم الدؤوب.

كُنَّا قريبَينِ حَدَّ الاتِّحادِ بنا

كأنَّ ما بَينَنا _ من صِدْقِنا _ عَصَبُ

كُنَّا لِفَرطِ حَياءٍ أنتَ مَنهَلُهُ

إذا رأَتْنا بناتُ الحَيِّ

نَحتَجِبُ

نُطَرِّزُ الحُلْمَ سَطراً في دفاترِنا

ونَنهَزُ الفجرَ حتى يهطُلَ الرُّطبُ

وكانتِ الريحُ تَخشى من مَعاوِلِنا

إذا لَمَعْنَ على الأكتافِ

تنسَحِبُ

المقطع الرابع: أوجاع لا تنتهي

يعود الشاعر إلى شبكة أسئلته التي يرميها على روح صديقه لعلها ترجع له وقد علقت فيها بعض الإجابات، فبدأ التساؤل كيف غيّب الموت صديقه الذي كان بالنسبة له كماء الحياة يجري مع الدم في شرايينه، وها هو يخرج اليوم مع دموع عينيه، وما يلبث أن يرمى بسؤاله الثاني مستغرباً بعد أن سرق الموت جزءً منه وأضعفه، فأمسى كرئة متعبة مسلوبة جزء من أنفاسها بعد فراق صديقه

هل يستطيع قلب ضعيف خشبي أن يصمد أمام نار الفراق؟

هذا الكم الهائل من الأسئلة المتتالية التي أغرقت الشاعر في رمال حيرته وجعلته عاجزاً في غياب غيث يحمل إليه إجابات تشفي غليل صدره، وهذه الإنكسارات جعلته يفتح دفاتر الماضي الجميل لعله يستعيد جزءً من رونق حياته باستعادته، ولكن صدمة الفراق تحبطه كلما اقترب استعادة بهجته التي ذهبت

---

(1) سورة مريم الآية 25

بذهاب رفيق دربه، وجعلته مغترباً في بلاد الله هائماً بين الواقع المر والذكريات الموجعة.

يا أيُّها الماءُ
كُنتَ الأمسَ في نُسُغي
ما بالُكَ اليومَ من عينَيَّ تنسَكِبُ؟
يا أيُّها النَفَسُ المَسروقُ من رِئَتي
أيغلِبُ النارَ قلبٌ درعُهُ خَشَبُ؟
تركتَني غارقاً في رَمْلِ أسئِلَتي
والغيثُ عنْ أوجُهِ الإدراكِ مُحتَجِبُ
أُفتِّشُ الأمسَ عن ذِكراكَ
مُنكَسِراً
وكلَّما قُلتُ أدنو منكَ أغتَرِبُ

المقطع الخامس: الوداع الأخير وحسرة الحرية

ختم الشاعر مرثيته بوداع أخير لصاحبه الذي مات دون أن يتنفس الحرية التي طالب فيها بصدق وإصرار، ليحمل بذلك غصنا أخضراً طرياً يكون بداية ربيع لبلاده التي عانت من الظلم والسجن والفساد وأرهقتها الحرب وأتعبها الموت والدمار.

يحاول الشاعر إظهار عجزه عن تقديم أي شيء لصديقه الذي أمسى تحت الأرض، فهو لا يملك إلا أشعاره وحروف قصائده يرثيه فيها وهي لا تغني عنه شيئاً ولا تعيده؛ مستشهداً على عجزه بالمثل السائر "فاقد الشيء لا يعطيه" فهو عاجز تماماً عن رد روحه وإعادته للحياة، وهو عاجز عن تقديم أي شيء له فقد فَقَدَ كل شيء برحيله، وفي البيت الأخير يعتذر الشاعر عن تقصيره في رثاء صديقه كما يجب، فهو يرى أنه يستحق أفضل الرثاء وأجود الشعر معللاً عدم امتلاكه للأدوات التي فقد برحيله، فأضحى كبستان من كروم العنب جف ويبس فلا يرجى منه شراب بعد؛ والحقيقة أن الشاعر أظهر في قصيدته تأثره الفكري وخلفيته الثقافية فنراه حينا يُضمّن شعره شيئاً من البيئة الثقافية العربية والشعر الجاهلي وتارة يعود للقرآن فيستقي منه المعاني ويعيد صياغتها بما يخدم قصيدته.

يا راحِلاً والربيعُ الغَضُّ في يَدِهِ

على بلادٍ رعاها القَحْطُ ينتَحِبُ

باللهِ

كيفَ لحَرْفي أنْ يُغيثَكَ ...؟

قُلْ ...

وفاقدُ الشيءِ _ يا محبوبُ _

لا يَهَبُ

كرومُ شِعريَ

لو أرثيكَ خاويةٌ على السّطورِ

فأنَّى يُعصَرُ العِنَبُ

؟؟؟؟

2-البنية الفنية

العنوان:

"يا......" على غير ما اعتاد الشعراء عنونة قصائدهم بعنوان مختصر يكثفون فيه روح القصيدة التي يكتبونها ويختزلون فيه غرضها نجد شاعرنا اختار لقصيدته عنواناً فضفاضاً، فقد اختصر عنوانه بأداة النداء (يا) المستخدمة للمنادى القريب والبعيد فهو قريب منه وبعيد عنه في ذات الوقت، وترك نقاطاً كثيرة بعدها لعجزه عن وصف هذا المنادى واختصاره بإطار عنوان قصير ليترك المجال للقارئ كي يتعرف على هذا المنادى من خلال قصيدة كاملة وضع فيها ما استطاع من صفات وسمات لصديقه الذي بذل روحه في سبيل وطنه.

الألفاظ:

بنى الشاعر قصيدته بشبكة من الأسئلة المباشرة مستخدماً عدة أدوات أبرزها (هل -كيف) استنطق من خلالها صديقه ليستنبط من خلالها عناصر لوحته التي أبدع فيها برسم صورة أخلاقية ونفسية لصديقه مستخدما ألفاظا بسيطة ومعبرة اقتصد فيها بألفاظ الحزن المباشر فلم تتعد أربع كلمات (جروح – نزف- أرثيك – رحلت) في ثمانية عشر بيتاً.

التراكيب:

اعتمد الشاعر في معظم قصيدته على الأسئلة والنفس الطويل ليعبر من خلالها عن فكرة مستقلة عبر عنها في كل بيت بشكل منفصل.

يا أيُّها الماءُ

كُنتَ الأمسَ في نُسُغي

ما بالُكَ اليومَ من عينَيَّ تنسَكِبُ

؟

التكوين الجمالي في القصيدة:

القصيدة بمعظمها سيطر عليها الأسلوب الإنشائي الطلبي فقد بناها الشاعر من خلال جملة من الأسئلة مما جعل أسلوب الاستفهام سمة عامة للقصيدة تميز بها الشاعر، قام بتوظيفها لاستثارة الفضول عند القارئ لاستنباط ما بين السطور من معان، وصور، وأخيلة جعلت من القصيدة كسلسة مقاطع من فلم قديم اختارها الشاعر من ذكرياته البعيدة، ومنحها روحاً، وحركة ليحييها في ذهن القارئ.

لقد بدأ قصيدته بصورة عميقة تدل على مدى أثر الصمت العربي والعالمي تجاه قضيته وقضية بلاده عليه فجعل الصمت كالإنسان الذي يخون على سبيل الاستعارة المكنية، ولا يكاد ينتهي من صورته الأولى حتى يلحقها بأخرى لها وقع أقوى في مقارنة لردود الفعل وأثرها، فإن كان الصمت خيانة فإن الخطب الجوفاء والاستنكارات دون فعل شيء ما هي إلا قاتل يودي بأرواح الأبرياء.

لم يكتف شاعرنا بالاستعارات بل أغنى البيت بكناية أوضح فيها ثقل الهموم والتعب على جسد صديقه، وضغطها على روحه وقد استخدم في هذا البيت الاستفهام ثلاث مرات ليجعل القارئ يستبط أثر الصمت والخذلان على الشعوب العربية من خلال صديقه.

هل خانَكَ الصمتُ؟

أَمْ أودَتْ بكَ الخُطَبُ؟

أَمْ أنَّها تَعِبَتْ مِنْ حَمْلِكَ الرُّكَبُ؟

يتابع الشاعر في المقطع الأول من قصيدته ربط موت صديقه بالتضحية لأجل مستقبل بلاده ويشبهه بالقمر المضيء الذي تخلى عن أجمل ما يميزه وهو ضوءه ليوحي لنا بأهمية تضحية صديقه بنفسه التي هي أغلى ما يملك في سبيل بلاده التي أرهقها التعب، وهنا استعار صفة التعب من الإنسان ليعطيها لبلاده التي عانت من ويلات الحرب، ويلجأ الشاعر للتشخيص ليُكسب المعنى وضوحاً ورونقاً أكثر فتبقى المعاني والصور عالقة في ذهن القارئ فيضمن بذلك أثراً أجمل وأبقى، ومن الأساليب الجمالية في هذا البيت استخدامه أسلوب النداء والاستفهام في ذات الوقت مستخدما (هل) و (يا) فأراد بسؤاله التمهيد لرحيل مناداه البعيد عنه والقريب من قلبه (يا قمراً) فالقمر بعيد عنا ولكننا نراه ونأنس به في الليالي الحالكة.

وهَلْ رحلتَ عنِ الأضواءِ يا قمراً

نِيابةً عن بلادٍ هَدَّها التَّعَبُ؟

يتابع الشاعر وصف صديقه، ولكنه يتجه إلى منحى آخر بعد أن مهّد لأهمية المرثي من خلال صبغ موته بالتضحية العظيمة في سبيل الوطن وسط خذلان كبير تجاه قضيته العادلة والمحقة؛ يبدأ الشاعر بعدها بوصف ألم الفقد والفراغ الذي تركه فراق صديقه الذي شبهه بالجبل كناية عن العزة والجاه والأمان والأنفة التي كان يتميز بها صديقه ما يجعله مقصداً لطالبي العون مستخدماً أسلوب النداء لتنبيه القارئ ولفت نظره للمنادى.

يا أيُّها الجَبلُ الجوديُّ

كيفَ لهُ

أنْ يغمُرَ السيلُ طوداً دونَهُ السُحبُ؟

يستمر في خطابه لصديقه ويستنطقه مستخدماً أسلوب الإنشاء الطلبي بصيغة الأمر (قل لي – أجبني) ليعبر عن مدى تعلقه به، ويلحقها بعبارة "فداك العمر" لتأكيد مقدار قيمته لديه واستعار لذلك صورة جميلة فشبهه بالذهب لارتفاع قيمته وثمنه وكذلك صاحبه الذي فقد بفراقه أصحاب كُثر كان سبب لاجتماعهم ووجودهم إلى جانبه، وقد استخدم الجناس الناقص في هذا البيت مما زاد رونق البيت ومنح جمالا لإيقاعه (ذهبا – ذهبوا).

ينتقل الشاعر إلى صورة دفن صديقه ووضعه في قبره ليسأله مستحلفاً إياه متسائلاً كيف وسع ذلك القبر الضيق رجلاً يحمل هموم وطن بأكلمه، وتنزف جراحه عزة وسؤدداً عظيماً.

كيفَ الأرضُ قَدْ وَسِعَتْ

ما سطَّرَتْهُ جروحٌ نزفُها رُتَبُ؟

يقع الشاعر في دوامة الأسئلة مجدداً وكأنها نار مشتعلة تحيط به كما يصورها مستخدماً الاستعارة للدلالة على أثر هذه الأسئلة التي تكويه بنارها، والأصعب من هذا كثرة هذه النيران التي تلهب قلبه وروحه (ألفُ (هَلْ) في داخلي اشتَعَلَتْ)، وما يزيد هذه الحال صعوبة وقساوة هو الضعف الذي يعانيه الشاعر في مجابهة هذه الدوامة والخروج منها ويعترف بذلك حيث بدأ الشطر الثاني بأسلوب تعجب يوضّح فيه هذا الضعف (ما أضعفَ الردَّ إنْ لمْ يَشفَعِ السَّبَبُ) واختتم بيته باستعارة أكملت المعنى وأوضحته حين شبه السبب بالإنسان الذي يشفع فأراد بذلك قصر الإجابات، وعجزها عن التعبير عن مكنونه وإحساسه لذا نراه يبدأ البيت الذي يليه بالنداء والتقرب من صاحبه (يا صاحبي) وكأنه لا يجد من يفهمه بعد فقدانه.

يتابع محاولاً إيجاد مبرراً للقارئ عن هذا الغموض الذي غطا فيه الشاعر أبياته مخبراً إياه من خلال خطابه لصديقه بأن الأشياء المبهمة تبقى تثير التعجب والتساؤل والفضول حتى يعرف سرها فإن عُرف بطل العجب منها، فاستطاع الشاعر من خلال هذه المعادلة الفلسفية أن يريح القارئ من عناء البحث عن تفسيرات منطقية لهذه الأسئلة لأن هذا الشي مغلق وغامض وسري بين طرفين أحدهما مات والثاني مازال يحاول كتمان تلك الأسرار.

يا صاحبيْ

أَعجَبُ الأشياءِ أبهَمُها

إنْ يُعْرَفِ السِّرُّ فيها يَبطُلِ العَجَبُ

مع بداية المقطع الثالث ينعطف الشاعر عن مساره العام في القصيدة والذي اعتمد فيه على الأسلوب الإنشائي وطرح الأسئلة، فنراه في هذا المقطع يستند إلى الأسلوب الخبري ليستفيد منه في استحضار الذكريات العميقة التي جمعته مع صديقه أيام الشباب حين كانوا متلاصقين متلازمين كأن الرابط الذي يجمعهما رابط رحم ودم وليس رابط صداقة، وعبّر عن هذه الفكرة بكناية جميلة ختم بها البيت الأول في المقطع الثالث.

كُنَّا قريبَينِ حَدَّ الاتِّحادِ بنا

كأنَّ ما بَينَنا _ من صِدْقِنا _ عَصَبُ

يكمل الشاعر في وصف صديقه بأجمل الصفات التي يعدها الشاعر محط فخر واعتزاز لذا أشرك نفسه فيها من خلال الضمير (نا) الدالة على جماعة المتكلمين فكرره ثماني مرات في أربعة أبيات تكوّن منها المقطع الثالث.

كُنَّا لِفَرطِ حَياءٍ أنتَ مَنهَلُهُ

إذا رأَتْنا بناتُ الحَيِّ

نَحتَجِبُ

في هذا البيت نسب الحياء لنفسه ولصديقه غير أن الصديق تفوق عليه في هذا الجانب، وكأنه يوحي بأنه اكتسب هذه الخصلة وهذا الخلق من صديقه، ويعبّر عن هذه الصفة بكناية أحسن استخدامها وتوظيفها لغرضه عندما قال (إذا رأَتْنا بناتُ الحَيِّ نَحتَجِبُ) كناية عن الحياء والعفة.

ينتقل الشاعر إلى سمة المثابرة والاجتهاد التي جمعتهما أيام الشباب والدراسة؛ ولتوضيح هذه الصفة ونقلها للقارئ بأسلوب أنيق اختار الشاعر أن يرسم لوحة جميلة شبه فيها الحلم بالشي الذي ينسج ويطرز بدقة اتسما بها على سبيل الاستعارة المكنية، وأتبع هذه الاستعارة باستعارتين ليكمل لوحته فهذا التعب وهذه الدراسة والجهد الذي ثابرا عليه كأنه يدفع الفجر لتشرق شمس طموحاتهم، ويجنوا ثمار تعبهم وسعيهم الذي سيكون وافراً وكأنه غيث سيهطل ويسقي عطش الكد والتعب.

نُطَرِّزُ الحُلْمَ سَطراً في دفاترِنا

ونَنهَزُ الفجرَ حتى يهطُلَ الرُّطبُ

النجاح هو ما ثبتهم أمام رياح الكسل والتغيير فأصبحت مطواعة بين يديهما وكأنها تخشى من إصرارهم على تحقيق أحلامهم، وقد عبّر الشاعر عن هذا باستعارة مكنية أضافت لشريط ذكرياته، ولوحته لوناً من عنفوان الشباب وحماسه التي روضوا بها رياح الخمول والكسل فانسحبت عندما رأت بريق أحلامهم يلمع من بعيد.

وكانتِ الريحُ تَخشى من مَعاوِلِنا

إذا لَمَعْنَ على الأكتافِ

تنسَحِبُ

في المقطع الرابع يعود الشاعر لسيل أسئلته التي لم يستطع النجاة منها أو إخفائها، بل سيطرت على أجزاء القصيدة فبث الشاعر من خلالها عصارة ألمه في فقد صديقه الذي شبهه بالماء الذي لا يستطيع أي مخلوق العيش بدونه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [1]

ويوضح الشاعر بعدها كيف أن هذا الماء كان يجري بشرايينه مع دمه، وفي هذه الصورة دلالة على القدر الكبير لصديقه عنده فقد جعله كجزء من جسده يمشي بعروقه وحين مات خرج كسيل دموع ينسكب من عينيه.

يا أيُّها الماءُ

كُنتَ الأمسَ في نُسُغي

ما بالُكَ اليومَ من عينَيَّ تنسَكِبُ؟

يستمر الشاعر في رسم ملامح جميلة ومركبة لصديقه مستخدماً أسلوب النداء، ثم الاستفهام لكي يحصل على أكبر قدر من انتباه القارئ ويشده إلى أهمية ما يقول فنراه ناداه في البيت الأول في المقطع بـ (الماء)، ثم صور لنا مسيرة هذا الماء بين عروقه وعيونه، وها هو الآن يناديه بـ (النفس) ثم وصف هذا النفس بأنه مسروق من رئته ليمرر لنا رسائلَ من خلال هذه الاستعارة بأنه فقد عزيزاً عليه مُحباً له

---

(1) سورة الأنبياء الآية 30

لدرجه وصفه بـ (النفس)، وفي الرسالة الثانية يخبرنا بأن هذا الموت كان مفاجئاً وغير متوقعاً ولذا وصفه بالمسروق؛ ثم يكمل الشاعر بصورة أخرى واصفاً حالته المتعبة والضعيفة كأنه قلب من خشب يحاول الصمود أمام لهيب الحزن الكبير.

نرى الشاعر اعتمد على الصور المركبة واقتصر في قسم كبير منها على العناصر الأساسية في الطبيعة (الماء – النار – الخشب- الرمل..)

يا أيُّها الماءُ

كُنتَ الأمسَ في نُسُغي

ما بالُكَ اليومَ من عينَيَّ تنسَكِبُ؟

يا أيُّها النَفَسُ المَسروقُ من رِئَتي

أيغلِبُ النارَ قلبٌ درعُهُ خَشَبُ؟

كل هذه الأسئلة التي مصدرها صديقه جعلت الشاعر خائر القوى منهك الحركة كأنه غارق في رمال متحركة من آلاف الأسئلة التي تحاول اغتياله والنيل منه لما تسببه له من الضياع والحزن، ولا يرى الشاعر بريق أملٍ في الأفق ولا غيث من إجابات تشفي صدره فكل حواسه فقدت الإدارك والوعي، والحقيقة أن الشاعر أبدع في استخدام الكناية عن الحيرة في الشطر الأول.

تركتَني غارقاً في رَمْلِ أسئِلَتي

والغيثُ عنْ أوجُهِ الإدراكِ مُحتَجِبُ

بعد أن عبر الشاعر عن ضياعه وحيرته التي تركه صديقه أسيرا لها أصيب بحالة من الضعف والانكسار ما جعله أسيراً لذكريات ماض بعيد يحاول فيها إحياؤه والاقتراب منه ومخاطبته من خلال سفر افتراضي عبر الزمن في دهاليز الذاكرة، ولكنه كلما حاول الاقتراب منه يخيب أمله فيبتعد أكثر، وتصبح المسافة أبعد والسفر أكثر مشقة فالحقيقة والواقع لا مفر منهما ولو أردنا الاختباء خلف جدران الذكريات.

أُفتِّشُ الأمسَ عن ذِكراكَ

مُنكَسِراً

وكلَّما قُلتُ أدنو منكَ أغتَرِبُ

يختم الشاعر قصيدته بمقطع ختمه بالاعتذار عن التقصير بعد أن بذل ما استطاع لتخليد ذكرى رحيل صديقه الذي رحل وهو يحمل حلم الربيع الأخضر لبلاده التي تعاني من الويلات، وتُسرق مواردها وتُبدد طاقاتها فكأنها تعيش قحطاً في كل المجالات، فاعتمد الشاعر في الشطر الأخير على الكناية في تصوير سوء الأوضاع، واستخدم الطباق ليوضح لنا رؤيته عن الأحداث فيقارن بين حلم بربيع أخضر وواقع من القحط والجفاف في كل المجالات.

يا راحِلاً والربيعُ الغَضُّ في يَدِهِ

على بلادٍ رعاها القَحْطُ ينتَحِبُ

وقبل أن يختم الشاعر قصيدته يمهد لاعتذاره وقلة حيلته، فيبدأ البيت الثاني في المقطع الأخير بالقسم، ثم يتحول إلى السؤال الذي استخدم فيه الاستعارة ليهب الحركة والحياة لكل شيء حتى الحروف التي عجزت مهما بلغت من الجمال والرونق أن تغيثه وتمنحه الحياة بعد أن سُلبت منه، ويختم بيته بحكمة فلسفية مفادها أن "فاقد الشيء لا يعطيه" لعلها تضمن له راحة لضميره الذي قد يؤنبه يوما ما.

باللهِ

كيفَ لحَرْفي أنْ يُغيثَكَ ...؟

قُلْ ...

وفاقدُ الشيءِ ــ يا محبوبُ ــ

لا يَهَبُ

وفي الختام يقدم الشاعر اعتذاره الأخير بأنه حاول ما استطاع، ولم يدّخر جهداً في محاولة لرثاء صديقه وتخليد ذكراه، ولكن بستان كلماته أمسى خاوياً وفي هذا تشبيه بديع وقوة في الوصف فالشاعر يقر بشاعريته وأنه شاعر فحل يمتلك أدوات الشاعر وفنونه، ولكنه رغم هذا يعترف بعجزه عن رثاء صديقه كما يستحق فلا يستطيع من يبست كرومه أن يصنع من العنب عصيراً وشراباً.

كرومُ شِعريَ

لو أرثيكَ خاويةٌ على السّطورِ

فأنَّى يُعصَرُ العِنَبُ

؟؟؟؟

تعتبر هذه القصيدة شاهداً على الروابط القوية التي حافظ المجتمع السوري عليها رغم تشتته وتغربه في أصقاع الأرض، فكل ما تمت دراسته في البحث سابقاً كان رابط الدم والرحم يجمع بين الشاعر المرثي ولكننا هنا نجد صدقاً في تصوير الحزن والألم على الفراق والفقد رغم عدم وجود صلة قرابة بينهما، وفيما يلي جدول يمثل استخدام الشاعر للصور البيانية والمحسنات البديعية والأساليب مع مواضعها:

الصورة البيانية	نوعها	موقعها
هل خانَكَ الصمتُ؟	استعارة مكنية	البيت الأول
أودَتْ بكَ الخُطَبُ؟	استعارة مكنية	البيت الأول
تَعِبَتْ مِنْ حَمْلِكَ الرُّكَبُ؟	كناية	البيت الأول
يا قمراً	استعارة تصريحية	البيت الثاني
بلادٍ هَدَّها التَّعَبُ	استعارة مكنية	البيت الثاني
يا أيها الجبل الجودي	تشبيه بليغ	البيت الرابع
يَشفَعِ السَّبَبُ	استعارة مكنية	البيت السادس
إذا رأَتْنا بناتُ الحَيّ نَحتَجِبُ	كناية	البيت التاسع
نُطَرِّزُ الحُلْمَ سَطراً	استعارة مكنية	البيت العاشر
يهطُلَ الرُّطبُ	استعارة مكنية	البيت العاشر
الريحُ تَخشى	استعارة مكنية	البيت الحادي عشر
النَفَسُ المَسروقُ من رِئَتي	استعارة مكنية	البيت الثالث عشر
تركتَني غارقاً في رَمْلِ أسئِلَتي	كناية	البيت الرابع عشر
بلادٍ رعاها القَحْطُ ينتَحِبُ	كناية	البيت السادس عشر

لحَرْفي أنْ يُغيثَكَ	استعارة مكنية	البيت الثامن عشر

المحسنات البديعية	نوعه	موقعه
الخُطَبُ - الرُّكَبُ	تصريع	البيت الأول

الأسلوب	نوعه	موقعه
هل خانَكَ الصمتُ؟ أَمْ أودَتْ بكَ الخُطَبُ؟ أَمْ أنَّها تَعِبَتْ مِنْ حَمْلِكَ الرُّكَبُ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الأول
وهَلْ رحلتَ عنِ الأضواءِ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثاني
يا قمراً	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الثاني
كيفَ لهُ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثالث
يا أيُّها الجَبلُ الجوديُّ	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الثالث
قُلْ لي - أَجِبْني	أسلوب إنشائي نوعه أمر	البيت الرابع
كيفَ الأرضُ قَدْ وَسِعَتْ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الخامس
وهَلْ ...؟ - وهَلْ ...؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت السادس
ما أضعفَ الردَّ	أسلوب إنشائي نوعه تعجب	البيت السادس
يا صاحبيْ	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت السابع
يا أيُّها الماءُ	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت الثاني عشر
ما بالُكَ اليومَ من عينَيَّ تنسَكِبُ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثاني عشر
أيغلِبُ النارَ قلبٌ درعُهُ خَشَبُ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثالث عشر

يا راحِلاً والربيعُ الغَضُّ في يَدِهِ	أسلوب إنشائي نوعه نداء	البيت السادس عشر
كيفَ لحَرْفي أنْ يُغيثَكَ ...؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت السابع عشر
باللهِ	أسلوب إنشائي نوعه قسم	البيت السابع عشر
فأنَّى يُعصَرُ العِنَبُ؟	أسلوب إنشائي نوعه استفهام	البيت الثامن عشر

نتائج البحث:

1- صدق العاطفة

يعد الرثاء من أصدق المواضيع الشعرية وأبعدها عن المبالغة كما في أشعار المدح والفخر، فيكاد الشاعر يمزج حروفه بدموعه التي يذرفها بعد فقد حبيب أو قريب، وهذا ما يؤكده أحد الأعراب عندما سؤل: ما بال مراثيكم أجمل أشعاركم؟ فقال: لأننا نقولها وأكبادنا تحترق وقد وقال الأصمعي: قلت لأعرابي: ما بال المراثي أشرف أشعاركم؟ قال: لأنا نقولها وقلوبنا محترقة والحقيقة أن القصائد المدروسة في هذا البحث خير مثال على ذلك فقد بلغ معظمهم حد الاحتراق.

2 - الشوق للطفولة

من خلال دراستنا وتناولنا لموضوع الرثاء في هذا البحث نجد أغلب الشعراء وخاصة عند رثاء الأب والأم والأخ يشتاقون إلى أيام طفولتهم، ويرون فيها الزمن الجميل والحضن الدافئ والمهرب المثالي من همومهم ومشاكلهم وأنواع خوفهم فهي تمثل لهم الأمان والحب والحنان.

3- الاستناد على الصور لنقل المشاعر

اعتمد الشعراء على الصور بشكل كبير جداً لنقل مشاعرهم وتقلباتهم النفسية، فالرثاء من المواضيع الشعرية المربكة لعواطف الشاعر إذ تتملكه مشاعر كثيرة من الحزن والألم والخوف والاكتئاب والقهر، ولا يجد سبيلاً سوى الصور والتشابيه والكنايات لبث هذه المشاعر المتقلبة والحالة النفسية غير المستقرة.

4- السفر عبر الزمن

يحتاج الشاعر الوصول إلى مرحلة من الوعي مرتبطة بنقطة زمنية معينة للتعبير عن حالة شعورية يريد إيصالها للمتلقي، بينما وجدنا خلال بحثنا أن الشعراء في مراثيهم يسافرون عبر الزمن نحو الماضي ليعيشوا مع أحبتهم مرة أخرى في نطاق زمني جميل ولحظات سعادة مرت بهم، كما أن بعض الشعراء جعل من قصيدته أشبه بشريط زمني يحمل الكثير من الصور والمقاطع من أقصى ذاكرته مع المرثي إلى لحظة دفنه.

5- التجسيد والاستنطاق للجوامد والأموات

بشكل متفاوت بين الشعراء وجدنا خلال الدراسة والبحث أنهم حاولوا استنطاق كل شيء لبث الروح في القصيدة، وجعل الجوامد تشارك في البكاء والندب والنواح على المرثي وفي بعض القصائد كان هناك استنطاق للمرثي نفسه.

6- التطور الأسلوبي لسرد القصص

نجح بعض الشعراء في بناء قصيدته على شكل قصة لها فصولها وأجزاؤها وأبعادها فتبدأ من العودة بالزمن إلى لحظات كان فيها المرثي بأجمل أوصافه، ويكمل الشاعر هذه السلسلة بالترتيب الزمني الذي يختاره فيدمج القارئ بقصة القصيدة لتنتهي بمشاهد الدفن والعودة من المقبرة وكأنه يجُلس القارئ أمام فلم سينمائي على شكل قصيدة.

7- الابتعاد عن الطائفية والتطرف وتبني خطاب إنساني

من خلال دراستنا للقصائد في هذا البحث نرى أن الشعراء تبنوا خطاباً إنسانياً تجاه وطنهم وحاولوا الابتعاد عن التطرف والطائفية والنبرة الانتقامية مع ذمهم لمن سبب لهم كل هذه الأوجاع والأحزان.

8- التسليم بالقضاء والقدر

تعرض الكثير من الشعراء شخصياً خلال الحرب لفقدان أحد أفراد أهله أو أسرته وأحبته، ولكنهم وإن حزنوا وتمنوا لو أن هناك سبيل لاستعادة من رحلوا نجدهم في مطلع أو ختام قصائدهم يسلمون أمرهم لقضاء الله وقدره.

9- الأمل بالمستقبل

رغم كل الدمار الذي حل بسوريا ورغم كل هذا الحزن والألم والتشرد والاغتراب الذي يعاني منه الشعب السوري منذ 2011 إلا أن الشاعر أحمد الهواس اختتم قصيدته بالأمل بمستقبل أفضل يصنعه الجيل القادم.

10- مناسبة البحر الكامل والبسيط لغرض الرثاء

من خلال الدراسة قمنا بتحليل سبع قصائد عروضيا فوجدنا استخدام الشعراء للبحر البسيط 3 مرات والبحر الكامل 3 مرات مع وجود قصيدة من الشعر العمودي كانت على البحر الوافر.

فهرس المصادر والمراجع

1- قصة الأدب المهجري، عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني- بيروت الطبعة 2 1973

2- أدب المهجر، عيسى الناعوري، دار المعارف، مصر، الطبعة 3

3- التشكيل الأسلوبي في الشعر المهجري الحديث (رسالة دكتوراه) محمد الأمين شيخة جامعة محمد خيضر بسكرة2009

4- أدب المهجر بين أصالة الشرق وفكر الغرب، نظمي عبد البديع، دار الفكر العربي

5- الغربة والحنين للوطن في الشعر الفلسطيني (رسالة دكتوراه)، أمين الصالح محمود عبد ربه، جامعة الأزهر1977

6- ديوان امرِئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار (ت ٥٤٥ م) اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي دار المعرفة – بيروت الطبعة: الثانية2004

7- ديوان قيس بن الملوح دار الكتب العلمية بيروت دراسة يسري عبد الغني الطبعة الأولى1999

8- ديوان جرير ص 493 دار بيروت لبنان 1986

9- ديوان الطرماح، دار الشرق العربي، حلب سوريا تحقيق د. عزة حسن الطبعة 2 ص297

10- ديوان المتنبي دار بيروت ط1 ص541 – 1983

11- ديوان عنترة بن شداد، تحقيق المولوي ص 308

12- ديوان الخنساء،شرح حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ط2 ص 45

13- ديوان الهذليين، الشعراء الهذليون، تعليق محمّد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ،ط1، ج1 ص1-2-3

14- ديوان أبي تمام - شرح التبريزي . تحقيق محمد عبده عزام " . دار المعارف / القاهرة سنة 1964

15- فدوى طوقان الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1993 ص114-115

16- هارون هاشم رشيد - مع الغرباء . رابطة الادب الحديث بالقاهره سنه ١٩٥٤ص ٣٦

17- ابو سلمى . من قصيدة عنوانها (سنعود) ديوان المشرد ص 53 -57

18- أنشودة المطر، بدر شاكر السياب طبعة مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر ص124-127

19- من أغاني الحرية- كاظم جواد 194

20- العروبة تكرم الشاعر الياس فرحات، مطبوعات وزارة الثقافة والإرشاد القومي للإقليم السوري ص36

21- في الميزان الجديد، محمد مندور 1984 الطبعة الأولى مطبعة كوتيب تونس ص94-95

22- شاعرات العرب – عبد البديع صقر 1967

23- مصارع العشاق، جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، دار صادر، بيروت

24- ديوان خارج أسوار الوقت، خالد المحيميد، دار موزاييك، إسطنبول،ط1 ص 58-62

25- كتاب أورينت 3، نادر شاليش الأطميات والريحانيات ص 59-60

26- الحماسة البصرية، أبو الحسن البصري تحقيق مختار الدين أحمد، عالم الكتب - بيروت

27- المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية مطابع شركة الإعلانات الشرقية 1989 644-645

28- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية مكتبة دار الشروق الطبعة الرابعة2004 ص

29- معجم اللغة العربية المعاصرة د أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤ هـ) عالم الكتب الطبعة: الأولى، 2008

30- كتاب مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي أحمد قبش دار الرشيد دمشق ط3 الصفحة 484

31- مصارع العشاق، جعفر بن أحمد بن الحسين السراج القاري البغدادي، دار صادر، بيروت الصفحة 60 الجزء 1

32- روضة المحبين ونزهة المشتاقين المؤلف، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد عزير شمس، دار عطاءات العلم (الرياض) الطبعة: الرابعة، 2019 ص214

33- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة ص218 ج 1

34- شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي، مطبعة دار المعارف ص 293.

35- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي،مطبعة مكتبة الآداب ، ط 17 ص23

36- الصعاليك في العصر الجاهلي أخبارهم وأشعارهم، محمد رضا مروة، دار الكتب العلمية 1990

37- سمط اللآلي في شرح أمالي القالي، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان

38- تاريخ مدينة دمشق ابن عساكر، تحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995

39- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- بيروت - لبنان

40- صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة

41- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد يوسف بن عبد الله القرطبي تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي , محمد عبد الكبير البكري، طباعة وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ج 2 ص288

42- معجم البلدان، ياقوت الحموي، جـ 5 صـ 262-263